القسم الثاني

النثر الفني

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)

هو: علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن: أمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وأحد الشجعان الأبطال ،ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء ،وأول الناس إسلامًا بعد خديجة .ولد بمكة وربى في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد جمعت خطبه وأقواله ورسائله في كتاب سمي ''نهج البلاغة'' ولأكثر الباحثين شك في نسبته كله إليه وله ديوان علي بن أبي طالب معظمه أو كله مدسوس عليه.

وكتب عنه المتأخرون : من ذلك لعبد الفتاح عبدالمقصود "الإمام علي" ولأحمد زكي صفوت ''ترجمة علي بن أبي طالب'' وللعقاد ''عبقرية الإمام'' ولطه حسين ''علي وبنوه'' وغير ذلك كثير.

راجع ترجمته في:

ابن الأثير: حوادث سنة ٤٠، والطبري (٦/٨٣)، والبدء والتاريخ (٥/٧٣)، وصفة الصفوة (١/١١١٨)، واليعقوبي (٢/١٥٤)، ومقاتل الطالبيين (١٤)، وحلية الأولياء (١/٦١)، ونهج البلاغة (٢/٥٧٩)، ومنهاج السنة (٣/٢)، وما بعده. والإصابة ترجمة رقم ٥٦٩٠.

من خطبة له

في قدرة الله وفي فضل القرآن وفي الوصية بالتقوى

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ[1]. خَلَقَ الْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ. وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالإِنْسِ رُسُلَهُ لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبْصِرُوهُمْ عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا[2]، وَحَلاَلِهَا وَحَرَامِهَا. وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِن جَنَّةٍ وَنَارٍ وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ. أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ[3] جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا.

مِنْهَا: فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَهُ. وَارْتَهَنَ عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ[4]. أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ. فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ. فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ. وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلا وَجَعَلَ لَهُ عَلَمًا بَادِيًا وَآيَةً مُحْكَمَةً تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ. فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ.

---

(١) المنصبة- كمصطبة- التعب.

(٢) هجم عليه- كنصر- دخل غفلة. والمعتبر مصدر ميمي الاعتبار والاتعاظ بمعنى والتصرف: التبدل. والمصاح- جمع معصحة بكسر الصاد وفتحها- بمعنى الصحة والعافية، كأن الناس في غفلة عن سر تعاقب الصحة والمرض على بدن الإنسان حتى نبههم رسل الله إلى أن هذا ابتلاء منه سبحانه ليعرف الإنسان عجزه وأن أمره بيد خالقه.

(٣) أي كما طلب من خلقه أن يحمدوه.

(٤) حبس نفوسهم في ضنك المؤاخذة حتى يؤدوا حق القرآن من العمل به، فإن لم يفعلوا لم يخلصوا بل يهلكوا.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ وَسَخَطُهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلِكُمْ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ. وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ[1] وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ. وَإِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ. قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَامًا لاَ يُسْقِطُونَ حَقًّا، وَلا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الْفِتَنِ وَنُورًا مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ. فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ. ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ. وَزُوَّارُهَا مَلاَئِكَتُهُ. وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ. فَبَادِرُوا الْمَعَادَ. وَسَابِقُوا الآجَالَ. فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ[2]، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ[3]. وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالإِرْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا. أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تَدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينَ شَيْطَانٍ. أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضًا لِغَضَبِهِ[4]، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ.

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ[5] الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ

---

(١) يقال فلان بعين فلان إذا كان بحيث لا يخفى عليه منه شيء .

(٢) أي يغشاهم بالمنية.

(٣) أي إنكم في حالة يمكنكم فيها العمل لآخرتكم وهي الحالة التي ندم المهملون على فواتها وسألوا الرجعة إليها كما حكى الله عنهم إذ يقول الواحد منهم ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت﴾.

(٤) مالك هو الموكل بالجحيم.

(٥) اليفن-بالتحريك-الشيخ المسن. ولهزه: أي خالطه. والقتير: الشيب.

الأَعْنَاقِ! وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ[1] حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ. فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ. وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوا فِي فِكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رِهَائِنُهَا[2]. أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ وَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١١] فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قِلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. واسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ. أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ(٣) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً. فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ. رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَدًا(٤)، وَصَانَ أَجْسَادَهُم أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا وَنَصَبًا(٥)﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ (الحديد: ٢١) أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبِي ونِعْمَ الوَكِيلُ.

---

١) نشبت- كفرحت- علقت. والجوامع- جمع جامعة- الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.

علق الرهن- كفرح- استحقه صاحب الحق وذلك إذا لم يمكن فكاكه في الوقت المشروط.

٣) يختبركم.

٤) حسيس: الصوت الخفي.

٥) سمع ومع وكرم- لغبًا ولغوبًا أعيى أشد الإعياء. والنصب: التعب أيضًا.

الجاحظ[1]

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، المصنف الحسن الكلام، البديع التصانيف، ولد بالبصرة في سنة ١٥٩هـ -في قول بعض المؤرخين- ونشأ بها منصبا على الدرس، وطلب العلم في صباه، حتى بلغ شأوًا بعيدًا في كثير من العلوم والفنون، وفي سنة ٢٠٤هـ رحل إلى بغداد للإقامة بها، وكانت في ذلك العهد زاهية زاهرة بمجالس العلم والأدب، مائجة بالشعراء والأدباء والمتكلمين. فأقبل يعلم الطلاب، ويناظر العلماء. وذاع اسمه، وطار ذكره، فسعى إليه المتعلمون من كل حدب وصوب، وتزاحمت على بابه صلات الخلفاء والوزراء.

وكان الجاحظ قوي الحفظ واسع الرواية، بعيد مدى الذكاء ساطع البرهان، سريع البديهة، حلو الفكاهة، كثير القراءة.

والجاحظ له تصانيف كثيرة، منها "الحيوان" أربعة مجلدات "البيان والتبيين"، و"سحر البيان"، و"التاج" ويسمى أخلاق الملوك، و"البخلاء".

وكتاب (البخلاء) هو كتاب أدب وعلم وفكاهة، وهو من أنفس الكتب التي يتنافس فيها الأدباء والمؤرخون، فلا نعرف كتابًا يفوقه للجاحظ، ظهرت فيه روحه الخفيفة تمز الأرواح، وتجتذب النفوس، ولا نعرف كتابًا يفوقه للجاحظ، تجلى فيه أسلوبه الفياض، وبيانه الجزل الرصين، وقدرته النادرة، على صياغة النادرة، في أوضح بيان، وأدق تعبير.

---

(١) راجع ترجمته في: الأعلام (٧٤/٥)، تاريخ بغداد (٢٠٨/١٢)، إرشاد الأديب (٦:٥٦-٨٠)، الوفيات (٣٨٨/١)، أمراء البيان (٣١١-٤٨٧)، آداب اللغة (١٦٧/٢)، لسان الميزان (٣٥٥/٤)، تذكرة النوادر (١٠٨)، نزهة الألباب (٢٥٤).

رَبِّ أنعمتَ فَزِدْ

تَوَلاَّكَ الله بحفْظِهِ، وأعانَكَ على شُكْره، ووفَّقك لِطَاعَتِهِ، وَجَعَلك من الفائزين برحْمته. ذكرتَ -حَفِظَكَ الله- أنَّك قرأتَ كتابي في تَصْنيف حِيَل لُصُوص النَّهار، وفي تفصيل حِيَل سُرَّاق اللَّيْل، وأنك سَدَدْتَ به كل خَلَل، وحصَّنت به كل عَوْرة، وتقدَّمتَ بما أفادك من لطائف الخُدع، وتَنبهك عليه من غَرَائب الحِيَل، فيما عَسَى ألاَّ يَبْلُغَه كَيْد، ولا يَحُوزَه مَكْر. وذكرتَ أنَّ مَوْقِع نَفْعه عظيم، وأنَّ التَّقدُّم في دَرْسه واجب. وقلت: اذكر لي نوادرَ البُخَلاء، واحتجاجَ الأشِحَّاء، وما يَجُوزُ مِنْ ذلك في باب الهَزْل، وما يَجُوز منه في باب الجِدّ، لأجعلَ الهزل مُستَراحًا، والراحةَ جَماما؛ فإنَّ للجِدّ كدًّا يَمْنع مِن مُعاودته، ولابُدّ لمن الْتَمَسَ نفْعَه منْ مُرَاجعته.

وذكرتُ مُلَح الحِزاميّ، واحتجاج الكِنْدي، ورسالة سَهْلِ بنِ هارون، وكلامَ ابنِ غَزْوَانَ، وخُطْبة الحارثي، وكلَّ ما حَضَرني من أعاجيبهم وأعجابِ غيرهم، ولِمَ سَمَّوُا البخلَ صَلاَحًا، والشُّحَّ اقتِصادًا، ولَمَ حَامُوا على المَنْع، ونسبوه إلى الحَزْم، ولَمَ نَصَبُوا للمُوَاساة، وقرنُوها بالتَّضييع، ولِمَ جَعَلوا الجُودَ سَرَفًا، والأَثَرَةَ جَهْلاً، ولم زَهِدُوا في الحَمْد، وقَلَّ احتِفالهم بالذمّ، ولَمَ استَضْعَفُوا مَنْ هَشَّ للذِّكْر وارْتَاحَ للبَذْل، ولم حَكموا بالقُوَّة لِمَنْ لا يميلُ إلى ثَنَاء، ولا يَنْحَرِفُ عن هجاء؛ ولم احتجُّوا بظَلَف العَيْش على لِينه، وبحُلْوِهِ على مُرِّه؛ ولِمَ تَنَايَعُوا في البُخْل؛ ولم اختاروا ما يُوجِبُ ذلك الاسمَ، مع أنفَتهمْ من ذلك الاسم؛ ولِمَ رَغِبُوا في الكَسْب، مع زُهدِهم في الإنفاق؛ ولم عَمِلوا في الغنَى عَمَلَ الخائِف من زوال الغِنَى، ولَمْ يفعلوا في الغِنَى عَمَلَ الرَّاجي لدوَام الغنَى، ولم وفَّروا نصيبَ الخوْف، وبَخَسُوا نَصِيبَ الرَّجَاء، مع طُول السَّلامة وشُمول العافية، والمُعَافَى أكثَرُ من المُبْتَلَى، ولَيْسَت الحوائجُ أقلَّ من الفوائد.

فكَيف يَدْعُو إلى السعادة مَنْ خَصَّ نَفْسَه بالشِّقْوة، بل كيف يَنْتَحِلُ نصيحةَ العامَّة مَنْ بَدَأَ بِغِشِّ الخاصَّة؟ ولِمَ احتجُّوا مَعَ شِدَّة عُقُولهم بما أجْمَعت الأمّة على تَقْبيحه، ولم فَخرُوا مع اتّساع مَعْرِفتهم بما أطْبَقُوا على تَهْجينه؟ وكيف يَفْطَن عند الاعتلال له، ويتغلغَلُ عندَ الاحتِجَاج عنه إلى الغايات البعيدة، والمعاني اللطيفة، ولا يَفْطَنُ لِظَاهر قُبْحه، وشناعة اسمه، وخُمُول ذِكْره، وَسُوء أَثَره على أهله؟

وكيف وهو الذي يَجْمَعُ له بَيْنَ الكدِّ وقلّة المَرْفِق، وبين السَّهر وخُشونةِ المَضْجَع، وبين طُول الاغتراب وطُول قِلة الانتفاع، ومعَ عِلْمه بأنَّ وارثه أعْدَى له من عَدُوِّه، وأنَّه أحقُّ بما له مِنْ وليِّه؟

أَوَ لَيس لَو أظْهرَ الجهلَ والغَبَاوة، وانتحلَ الغَفْلة والحَماقة، ثم احتجّ بتلك المعاني الشِّداد، وبالألفاظ الحِسَان، وجَوْدَة الاختصار، وبتقريب المعنى، وبسُهولة المَخْرَج، وإصابة الموضع لكان ما ظهر من معانيه وبيانه، مُكذِّبًا لما ظهر من جهله ونقصانه؟ ولِمَ جَاز أنْ يُبْصِر بعقله البعيدَ الغامِضَ، ويَعْيَا عن القريب الجليل؟

وقلتَ: فبيِّنْ لي ما الشيء الذي خَبَلَ عُقُولهم، وأفْسَدَ أذهانَهُمْ، وأغْشَى تِلك الأبصار، ونقَضَ ذلك الاعتدال؟ وما الشيءُ الذي له عَانَدُوا الحقَّ، وخالفوا الأَمَمَ؟ وما هذا التركيب المُتضادُّ، والمِزَاجُ المتنافي؟ وما هذا الغَبَاء الشديدُ الذي إلى جَنْبِهِ فِطْنةٌ عجيبة؟ وما هذا السببُ الذي خَفِيَ به الجليلُ الواضِح، وأُدْرِكَ به الدَّقيقُ الغامِضُ؟

وقلتَ: وليس عَجَبِي مِمَّنْ خَلَعَ عِذاره في البُخْل، وأبدى صَفحَتَهُ للذمّ، ولم يَرْضَ من القول إلا بمُقارَعة الخَصْم، ولا من الاحتجاج إلا بما رسم في الكتب؛ ولا عجبي مِن مَغْلُوب على عَقْله، مُسَخَّرٍ لإظهار عَيْبه، كَعَجَبي مِمَّن قد فَطِنَ لبُخْله، وعَرَفَ إفراطَ شُحِّه، وهو في ذلك يُجَاهِدُ نَفسَه، ويُغَالِب طَبْعَه. ولربَّما ظَنَّ أنْ قد فُطِنَ له، وعُرِفَ ما عنده، فموَّهَ شيئًا لا يَقْبَل التَّمْويه، ورَقَّعَ خَرْقًا لا يقبل الرَّقْعَ.

فلو أنَّه كما فَطِنَ لِعَيْبِهِ، وفَطِنَ لِمَن فطن لعَيْبه، فَطِنَ لضعْفِه عن عِلاج نفسه، وعن تقويم أخْلاطِهِ؛ وعن استرجاع ما سَلَفَ من عاداته، وعن قَلْبِه أخلاقَهُ المدْخُولةَ إلى أن تعود سليمةً، لتَركَ تكلُّفَ ما لا يستطيعه، ولَرَبِحَ الإنْفَاقَ على مَنْ يَذُمُّه، ولَمَا وَضَعَ على

نَفْسِهِ الرُّقَبَاء، ولا أَخْضَرَ مائِدتَه الشعراءَ، ولا خَالَطَ بُرُدَ الآفاق، ولا لابَسَ الموكَّلين بالأخبار، ولاستَرَاحَ من كَدِّ الكُلْفَة، وَدَخَلَ في غِمار الأمّة.

وبعدُ فما بَالُه يفْطَنُ لِعُيُوب الناس إذا أطعمُوه، ولا يفْطَنُ لعيب نَفْسه إذا أطعمهم، وإنْ كان عَيْبُه مكشوفًا، وعيبُ من أطْعَمَه مستورًا؟

ولِمَ سَخَتْ نَفْسُ أحَدِهم بالكثير من التِّبْر، وشحَّتْ بالقليل من الطُّعْم، وقد عَلِمَ أنَّ الذي مَنَع يسيرٌ في جنب ما بَذَل، وأنّه لو شاء أنْ يُحَصِّل بالقليل ممَّا جاد به أضْعَافَ ما بَخِلَ به، كان ذلك عَتِيدًا، ويسيرًا مَوْجُودًا؟

وقلت: ولا بُدَّ مِنْ أنْ تُعَرِّفني الهَنَات[1] التي نَمَّتْ على المتكلِّفين، ودلَّت على حَقَائِق المُتَمَوِّهِين، وَهَتَكَتْ عَنْ أستار الأدْعياء، وفرَّقت بين الحقيقة والرِّياء، وفَصَلَتْ بين البَهْرَجِ المُتَزَخْرِف، والمطبوع المُبْتَهل؛ لتقِفَ -زَعَمْتَ- عندها، ولِتعْرِضَ نَفْسَك عليها، ولتَتَوَهَّمَ مواقِعها وعواقبها. فإنْ نَبَّهك التَّصَفُّحُ لها على عَيْب قد أغْفَلْتَه، عرفتَ مكانه فاجتنبْتَه. فإن كان عَتِيدًا ظاهِرًا معروفًا عندك نظرتَ: فإنْ كان احتمالك فاضِلاً على بُخْلِك، دُمْت على إطعامهم، وعلى اكتِساب المحبَّة بمؤاكلتهم، وإنْ كان اكْتراثُك غامِرَ الاجتهادِ سَتَرْتَ نفسك، وانفردْتَ بطيِّب زادك ودخلْتَ مع الغِمار، وعِشْتَ عَيْشَ المستورين. وإن كانت الحروبُ بينك وبين طباعك سِجَالا، وكانت أسبابُكما أمْثالا وأشْكالا، أجَبْتَ الحَزْم إلى ترك التَّعرُّض، وأجبت الاحتياطَ إلى رَفض التكلُّف، ورأيتَ أنَّ مَنْ حصَّل السلامةَ من الذَّم فقد غَنِم، وأنَّ من آثر الثِّقَةَ على التَّغْرير فقد حَزُم.

وذكرتَ أنَّك إلى مَعْرِفة هذا البابِ أحْوَجُ، وأنَّ ذا المُرُوءة إلى هذا العِلْم أفْقَرُ، وأنّي إنْ حَصَّنت من الذَّمِّ عِرْضَكَ، بعد أنْ حصَّنتُ من اللُّصوص مالك، فقد بلغتُ لكَ ما لم يبلغْه أبٌ بارٌّ، ولا أمٌ رَؤُوم.

وسألتَ أن أكتُبَ لك علَّة أنَّ الرَّجُل أحقُّ ببيته من الغريب، وأوْلَى بأخيه من البَعيد، وأنَّ البعيدَ أحقُّ بالغَيْرَة، والقريبَ أوْلَى بالأَنَفَة، وأنَّ الاستزادة في النَّسْل كالاستزادة في

---

(١) الهنات: خصال السوء كما في الأساس جَمع هَنَة (بفتح الهاء والنون).

الحرث، إلا أنَّ العادةَ هي التي أَوْحَشَتْ مِنْه، والديانة هي التي حَرَّمته، ولأنَّ الناس يَتَزَيَّدون أيضًا في استعظامه، ويَتَّحِلُون أكثرَ مما عندهمُ في استِشناعه .

وعِلَّةَ الجَهْجَاه[1] في تَحْسِين الكَذِب بِمَرْتَبَة الصِّدق في مواضِع، وفي تَقْبِيح الصِّدْق في مواضع، في إلحاق الكذب بمرتبة الصدق، وفي حَطِّ الصدقِ إلى موضعِ الكذب؛ وأنَّ الناس يَظْلِمون الكذبَ بتَنَاسِي مناقبه، وتذكُّر مَثَالبه، ويُحَابُون، الصِّدقَ بتذكُّر منافعه، وبتناسِي مَضَارِّه، وإنَّهم لوْ وازَنُوا بين مَرَافِقهما، وعَدَلُوا بين خِصَالهما، لما فَرَّقُوا بينهما هذا التَّفريق، ولما رأوهما بهذه العيون.

ومَذْهَب صَحْصَح[2] في تفضيل النسيان على كثير من الذِّكْر، وأنَّ الغَبَاء في الجملة أَنْفَعُ من الفِطنة في الجملة، وأنَّ عَيْشَ البهائم أحسنُ مَوْقِعًا من النفوس من عَيْشِ العقلاء، وأنَّك لو أسْمَنْتَ بَهيمةً ورجلاً ذا مُروءةٍ، أو امرأةً ذاتَ عقل وهِمَّة، وأخرى ذاتَ غَبَاء وغَفْلة، لكان الشَّحْمُ إلى البهيمة أسْرَعَ، وعن ذات العَقْل والهِمَّة أَبْطَأ. ولأنَّ العقلَ مقرون بالحَذَر والاهتمام، ولأن الغَبَاء مقرون بفراغ البال والأمْن، فلذلك البهيمةُ تَقْنُو شَحْمًا في الأيام اليَسيرة. ولا تَجد ذلك لذي الهِمَّة البَعيدة. ومتوقِّعُ البلاء في البلاء وإن سَلِمَ منه. والعاقلُ في الرَجاء إلى أن يُدْرِكه البلاء.

ولولا أنَّك تَجدُ هذه الأبوابَ وأكثرَ منها مُصَوَّرَةً في كتابي الذي سُمِّي "كتاب المسائل"، لأتيتُ على كثير منه في هذا الكتاب.

فأمَّا ما سألتَ من احتجاج الأشحَّاء، ونوادرِ أحاديث البُخَلاَء، فسأوجدُك ذلك في قِصصهم-إنْ شاء الله تعالى-مُفَرَّقًا، وفي احْتِجَاجاتهم مُجْمَلا، (فهو أجْمعُ لهذا الباب) من وصْف ما عندي، دُون ما انتهى إليَّ من أخْبارهم على وَجْهها؛ وعلى أنَّ الكتابَ أيضًا يصير أقْصَر، ويصيرُ العارُ فيه أقلّ.

---

(١) الجهجهاه: رجل له رأي في تحسين الكذب في مواطن خاصة، و لم نعثر على خبر له أو ترجمة .

(٢) صحصح: رجل له هذا الرأي.

ونبتدئ برسالة سَهْلِ بن هارونَ، ثم بطُرَفٍ أهْلِ خُراسانَ، لإكثار الناس في أهل خُرسانَ.

ولك في هذا الكتاب ثَلاثَةُ أشياء: تَبيُّنِ حُجَّةٍ طَرِيفةٍ، أو تَعَرُّفِ حِيلة لطيفة، أو استفادةِ نَادِرَةٍ عجيبة. وأنت في ضَحِكك منه إذا شِئْتَ، وفي لَهْوٍ إذا مَلِلْتَ الجِدَّ.

وأنا أزعمُ أنَّ البُكَاءَ صالِحٌ للطبائع، ومحمودُ المَغَبَّة، إذا وافق المَوْضِع، و لم يُجاوز المقدار، و لم يَعْدِل عن الجِهة، ودليلٌ على الرِّقّة، والبُعْدِ من القسْوة. وربما عُدَّ من الوَفَاء، وشِدَّةِ الوَجْد على الأوْلياء. وهو من أعظم ما تقرَّب به العابِدُون، واسترحمَ به الخائِفون.

وقال بعض الحكماءِ لرَجُلٍ اشتَدّ جَزَعُهُ من بُكاء صبيّ له: لا تجزع، فإنَّه أفْتَحُ لِجرْمه، وأصَحُّ لبَصَره.

وضَرَبَ عامرُ بن عبدِ قَيْسٍ بيده على عَيْنه، فقال: جامِدةٌ شاخِصة لا تَنْدَى! وقيل لِصَفْوَانَ بن مُحْرِز، عندَ طُول بكائه وتذكُّر أحزانه: إنَّ طول البكاء يُورِث العَمَى. فقال: ذلك لها شهادة. فبكى حتى عَمِيَ.

وقد مُدِح بالبُكاء ناسٌ كثير: منهم يحيى البَكَّاءُ، وهَيْثَمٌ البكَّاء. وكان صَفْوَانُ بن مُحْرِز يسمَّى البَكَّاءَ.

وإذا كان البكاءُ الذي ما دامَ صاحبُه فيه فإنّه في بَلاء وربّما أعمى البصر، وأفسد الدّماغ، ودلَّ على السُّخْف، وقضى على صاحبه بالهَلَع، وشُبِّه بالأمَةِ اللكْعَاء، وبالحَدَثِ الضَّرَع-كذلك، فما ظَنُّك بالضحك الذي لا يزال صاحبُه في غاية السرور، إلى أن ينقطع عنه سببه؟

ولو كان الضَّحكُ قبيحًا من الضَّاحك، وقبيحًا من المُضْحِكِ، لما قيل للزَّهْرة والحبرة والحَلي والقَصْر المَبْنِيِّ: كأنَّه يَضْحَك ضحِكًا. وقد قال الله جَلَّ ذِكْره: [وأنّه هُوَ أضحك وأبكى، وأنّه هو أمات وأحْيَا](النجم: ٤٣،٤٤). فوضَع الضحك بحِذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت. وإنَّه لا يُضِيف الله إلى نفسه القَبيحَ، ولا يَمُنُّ على خَلْقِه بالنقص.

وكيف لا يكون مَوْقِعهُ من سُرُور النَّفْس عظيمًا، ومِنْ مَصْلَحة الطِّباع كبيرًا، وهو شيء في أصل الطِّباع، وفي أساس التركيب. لأن الضحك أوّل خيْر يَظْهَرُ من الصَّبيّ. وقد

تَطِيبُ نَفْسُه، وعليه ينبتُ شحمه، ويكثر دَمُه الذي هو عِلّة سروره، ومادّةُ قوّته. ولِفَضْل خِصَال الضحك عند العرب تسمّي أولادها بالضَّحّاك وببسَّام وبِطَلْق وبطَلِيق. وقد ضَحِك النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ومَزَح. وضَحِكَ الصَّالحون ومَزَحُوا.وإذا مدَحُوا قالوا: هو ضَحُوك السِّنّ، وبسَّام العَشِيَّات، وهَشٌّ إلى الضَّيف، وذو أَرْيَحِيَّة واهتزاز.

وإذا ذمُّوا قالوا: هو عَبُوسٌ، وهو كالِحٌ، وهو قَطُوبٌ، وهو شَتِيم المُحيَّا، وهو مُكْفَهِرٌّ أبدًا، وهو كَريه، ومقبَّضُ الوجه، وحامِضُ الوجه، وكأنما وجْهُه بالخَلّ مَنْضُوح!.

وللمزْح مَوضع، وله مقدار، متى جازَهما أحد، وقَصَّر عنهما أحد، صار الفاضلُ خَطَلا، والتقصيرُ نَقْصا. فالناسُ لم يَعِيبُوا الضَّحِكَ إلا بقَدْر، ولم يَعِيبُوا المزح إلا بقَدْر.

ومتى أريد بالمزْح النفعُ، وبالضحك الشيءُ الذي له جُعِلَ الضَّحكُ، صار المَزْحُ جِدًّا، والضحكُ وَقَارا.

وهذا كتاب لا أَغُرُّك مِنْه، ولا أَستُرُ عنك عَيْبَه. لأنه لا يجوز أن يُكْمَلَ لما تريده، ولا يجوز أن يُوَفَّى حقَّه كما ينبغي له: لأنّ هاهنا أحاديثَ كثيرةً متى أطلعنا منها حَرْفا عُرِفَ أصحابُها، وإنْ لم نُسَمِّهم، ولم نُرِدْ ذلك بهم. وسواءٌ سَمَّيناهم أو ذكرنا ما يَدُلُّ على أسمائهم. منهم الصّديق والوَلِيُّ والمَستُور والمُتَجمِّل. وليس يَفِي حُسْنُ الفائدة لكم بقُبْح الجِناية عَلَيْهم. فهذا باب يَسْقُط البَتَّةَ، ويُختَلُّ به الكتاب لا مَحَالة. وهو أكثرها بابًا، وأعجبُها منك مَوْقِعًا وأحاديثَ أُخَرَ ليس لها شُهْرَةٌ؛ ولو شُهِرت لما كان فيها دليلٌ على أربابها، ولا هي مفيدةٌ أصحابَها. وليس يتوفّر أبدًا حُسْنُها إلا بأن تَعْرِفَ أهلَها، وحتى تتصل بمستحقّها، وبمعادنها واللائِقينَ بها. وفي قَطْع ما بينها وبَيْنَ عَنَاصِرها ومعانيها سُقُوط نِصْف المُلْحة، وذَهابُ شَطْرِ النادرة.

ولو أنّ رجلاً ألْزَقَ نادرةً بأبي الحارث جُمَّيْن، والهَيْثَم بن مُطَهَّر، وبمُزَبِّد، وابنِ الأحْمر، ثم كانت باردةً، لَجَرَتْ على أحسنِ ما يكون. ولو ولّد نادرةً حارّةً في نفسها، مليحةً في مَعْنَاها، ثم أضافها إلى صالِح بن حُنَيْن، وإلى ابن النَّوّاء، وإلى بعض البُغَضَاء، لعادت باردةً، ولصارت فاتِرة، فإنّ الفاتِر شَرٌّ من البارد.

وكما أنك لو ولّدت كلامًا في الزُّهْد، ومَوْعِظَةً للناس، ثم قلتَ: هذا من كلام بكر بن عبد الله المُزَنِيّ، وعامرِ بن عبد قَيْسٍ العَنْبَرِيّ، ومُوَرِّق العِجْلِيّ، ويزيدَ الرَّقَاشِيّ، لتضاعَفَ حُسْنُه، ولأحدثَ له ذلك النَّسَبُ نَضَارةً ورِفعةً لم تكن له. ولو قُلْتَ: قالها أبو كَعْبٍ الصُّوفيُّ، أو عبدُ المؤمن، أو أبو نُوَاسٍ الشاعرُ، أو حُسَيْنٌ الخليعُ، لَمَا كان لها إلا ما لَها في نفسها. وبالحَرَى أن تغلَطَ في مقدارها، فَتَبْخَس مِنْ حقِّها.

وقد كتبنا لك أحاديث كثيرةً مُضافةً إلى أربابها، وأحاديثَ كثيرة غيرَ مُضَافةٍ إلى أربابها؛ إمَّا بالخوف منهم، وإمَّا بالإكرام لهم. ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لَمَا تكلّفتُه، ولَمَا وضعتُ كلامي موضع الضَّيْم والنِّقْمة. فإن كانتْ لائمةٌ أو عَجْزٌ فعليك، وإن كان عُذْرٌ فَلِي دُونَك.

رسالة سَهْلِ بن هارون

هو أبي محمد بن راهبون، وهذه رسالته إلى بني عَمّه من آل راهبون، حين ذَمُّوا مَذْهَبَه في البخل، وتتبّعوا كلامه في الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلحَ الله أمرَكم، وَجَمَع شَمْلَكم، وعلّمَكم الخير، وجَعَلَكم من أهْله! قال الأحْنَفُ ابنُ قَيْس: يا مَعْشر بني تَمِيم، لا تُسْرِعُوا إلى الفِتنة، فإنّ أسرع النّاس إلى القتال أقَلُّهم حَياءً من الفِرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوبَ جَمَّةً فتأملْ عَيّابا، فإنّه إنّما يَعِيبُ بفَضْل ما فيه من العَيْب. وأوّلُ العَيْبِ أن تَعِيبَ ما ليس بعَيْب. وقبيحٌ أنْ تَنْهَى عن مُرْشِد، أو تُغْرِيَ بمُشْفِق.

وما أردنا بما قلنا إلا هِدايَتكم وتَقْوِيمكم، وإلا إصْلاحَ فسادِكم، وإبقاءَ النِّعمةِ عليكم. ولئن أخْطَأْنا سبيلَ إرشادِكم، فما أخطأْنا سبيلَ حُسْنِ النيّة فيما بيننا وبينكم.

ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيْناكم إلاّ بما قد اخترناه لأنْفُسنا قَبْلَكم، وشُهِرْنا به في الآفاق دُونَكم. فما كان أحقَّكم في تقدم حُرْمَتِنا بكم، أنْ تَرْعَوْا حقَّ قَصْدِنا بذلك إليكم، وتنْبيهَنا على ما أغْفَلنا من واجب حَقِّكم! فلا العُذْرَ المبسوطَ بلغْتُم، ولا بواجبِ الحُرْمة قُمْتُم. ولو كان ذِكْرُ العُيُوبِ برًّا وَفَضْلاً، لرأينا أنّ في أنْفُسنا عن ذلك شُغْلا. وإنّ من أعظم الشِّقْوة، وأبعدَ من السعادة، أنْ لاَ يَزَالُ يُتَذَكَّرُ زَلَلُ المعلّمين، ويُتَناسَى سُوءُ استماع المتعلّمين، ويُسْتَعْظَمُ غَلَطُ العاذلين، ولا يُحْفَلُ بتعمُّد المَعْذُولين.

عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عَجْنه خَمِيرًا، كما أجَدْته فَطِيرًا، ليكون أطْيَبَ لطَعْمه، وأزيدَ في رَيْعه. وقد قال عمر بن الخطّاب-رضي الله عنه ورَحِمَه-لأهله: أملِكُوا العجينَ، فإنّه أرْبَحُ الطَّحْنَتَين.

وعِبتم عليَّ قولي: مَنْ لم يعرف مَوَاقِعَ السَّرَفِ في المَوْجُود الرَّخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد في المُمْتَنِع الغالي: فلقد أتيتُ من ماء الوُضُوء بكَيْلة يَدُلُّ حَجْمُها على مَبْلَغ

الكِفاية، وأشَف من الكفاية. فلما صرتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التَّوفير عليها من وظيفة الماء، وجدتُ في الأعضاءِ فَضْلاً على الماء، فَعَلِمْتُ أنْ لو كنتُ مَكَّنتُ لاقتصادَ في أوائله، ورغِبْتُ عن التهاوُن به في ابتدائه، لخرج آخرُهُ على كفايةِ أوَّله، لكان نصيبُ العُضْو الأوَّل كنصيب الآخر. فعبتموني بذلك، وشَنَّعْتُمُوه بجُهْدِكم، فَبَّحتموه. وقد قال الحَسَنُ عند ذكر السَّرَف: إنَّهُ لَيَكُون في الماعُونَيْن الماءِ والكَلإِ. فلم يَرْضَ بذكْر الماء حتى أرْدَفَه بالكَلإِ.

وعبتموني حين خَتَمْتُ على سَدٍّ عظيم، وفيه شيء ثَمين منْ فاكهة نَفيسة، ومنْ رُطَبَة غَريبة، على عَبْدٍ نَهِم، وصَبِيّ جَشِع، وأمَةٍ لَكْعَاء، وزَوْجة خَرْقاء. وليس من أصل الأدب، ولا في تَرْتيب الحُكْم، ولا في عادات القَادَة، ولا في تَدْبير السَّادة، أن يَستويَ في نفيس المأكول، وغَريب المشروب، وثَمين الملبوس، وخَطِير المركوب، والنَّاعِم من كلِّ فَنّ، واللُّباب من كلِّ شَكْل، التابعُ والمتبوعُ، والسَّيِّدُ والمَسُود. كما لا تَستَوِي مواضِعُهم في المجلس، ومواقعُ أسمائهم في العُنْوانات، وما يُستَقْبلونَ به من التَّحِيَّات. وكيفَ وهم لا يَفْقِدون مِنْ ذلك ما يَفْقِدُ القادرُ، ولا يَكْتَرِثُون له اكتراثَ العارف؟ مَنْ شَاءَ أطعمَ كَلْبَهُ الدَّجاجَ المسمَّنَ، وأعْلَفَ حِمارَه السِّمْسِمَ المقشَّر!

فعِبْتُمُوني بالخَتْم، وقد خَتَمَ بَعضُ الأئمة على مِزْوَد سَويق. وخَتَمَ على كِيس فارغ، وقال طِينَةٌ خيرٌ من ظِنَّة. فأمْسكتم عَمَّن ختم على لا شيء، وعِبْتم مَنْ خَتَم على شيء.

وعِبْتُمُوني حينَ قلتُ للغلام: إذا زِدْتَ في المَرَق فَزِدْ في الإنْضَاح، لِتَجْمَعَ بين التأدُّم باللحم والمَرَق، ولِتَجْمَعَ مع الارتِفَاق بالمَرَق الطِّيبَ. وقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "إذا طبختم لَحْمًا فَزِيدُوا في الماءِ، فإنْ لم يُصِبْ أحدكم لحمًا أصابَ مَرَقا".

وعِبْتُمُوني بخَصْفِ النِّعال، وبتَصْدير القميص، وحينَ زعمتُ أنَّ المخْصُوفَةَ أبْقَى وأوْطأ وأوْقَى، وأنْفَى للكِبْر، وأشبهُ بالنُّسُك، وأنَّ الترقيع من الحَزْم، وأنَّ الاجتماعَ مَعَ الحِفْظ، وأنَّ التَّفرُّق مع التضييع. وقد كان النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَخْصِفُ نعلَه، ويُرَقِّعُ ثوبه. ولقد لَفَقَتْ سُعْدي بنتُ عَوْف إزارَ طَلْحَةَ، وهو جَوَّادُ قُرَيْش، وهو طَلْحَةُ الفيَّاضُ. وكان في ثوب عُمَرَ رِقَاعُ أدَمٍ. وقال: من لم يَسْتَحْيِ من الخِلال خَفَتْ مُؤْنته، وقلَّ كِبْره.

وقالوا: لا جَدِيد لمن لا يلبس الخَلَقَ.

وبعث زيادٌ رَجُلاً يَرْتَادُ له مُحَدِّثًا، واشْتَرَطَ على الرَّائد أن يكون عاقلاً مُسَدَّدًا. فأتاه به مُوَافِقًا. فقال: أكنتَ ذا معرفة به؟ قال: لا، ولا رأيتُه قَبْلَ ساعته. قال: أفَناقَلْتَه الكلامَ، وفاتَحْتَهُ الأمُورَ قبلَ أنْ تُوصِّله إليّ؟ قال: لا. قال: فَلِمَ اخترتَه على جَمِيع مَنْ رأيتَه؟ قال: يومُنَا يومٌ قائِظ، و لم أزَلْ أتعرَّفُ عُقُولَ الناس بطعامهم ولباسهم في مِثْل هذا اليوم. ورأيتُ ثيابَ الناسِ جُدُدا، وثيابَه لُبُسا، فظننتُ به الحَزْم.

وقد عَلِمْنا أنّ الخَلَقَ في مَوْضِعه، مِثْلُ الجديد في مَوْضِعه. وقد جعل الله عزَّ وجلَّ لكلِّ شيء قَدْرًا، وبَوَّأ له مَوْضِعًا؛ كما جَعَلَ لكلِّ دَهْر رجالاً، ولكلِّ مقام مَقالاً. وقد أحْيَا بالسُّم، وأَمَاتَ بالغِذَاء، وأغصّ بالماء، وقَتَلَ بالدواء. فترقيعُ الثَّوْبِ يَجْمَعُ مع الإصلاحِ التواضُعَ. وخلافُ ذلك يجمع مع الإسراف التكبّر. وقد زعَمُوا أنَّ الإصلاح أحَدُ الكسْبَيْن، كما زَعَمُوا أنّ قِلّة العِيَال أحدُ اليَسَارتين. وقد جَبَر الأحْنَفُ يَدَ عَنْزٍ. وأمر بذلك النُّعْمَانُ. وقال عُمَر: مَنْ أكلَ بَيْضة فقد أكل دَجَاجة. وقال رجلٌ لبعض السَّادة: أهْدِي إليك دَجَاجةً؟ فقال: إن كان لا بُدّ فاجْعلها بَيَّاضة. وعدّ أبو الدَّرْدَاء العُرَاقَ حُرَّ البَهيمة.

وعِبْتُموني حين قُلْتُ: لا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بطول عُمُره، وتَقَوُّسِ ظَهْره، ورِقَّة عَظْمه، ووَهَنِ قُوته، أن يُرِيَ أكْرُومَتَه، ولا يُحْرِجْه ذلك إلى إخراج ماله مِنْ يديْه، وتحويله إلى مِلْك غَيْره، وإلى تحكيم السَّرَف فيه، وتسْلِيطِ الشَّهَوات عليه؛ فلعلّه أن يكون مُعَمَّرًا وهو لا يَدْرِي، ومَمْدُودًا له في السِّن وهو لا يَشْعُر، ولعلّه أن يُرْزَقَ الولدَ على اليأس، أو يَحْدُثَ عليه بعضُ مُخَبَّآت الدُّهور، مما لا يَخْطُر على البال، ولا تُدْرِكُه العقول، فَيَسْتردَّهُ ممن لا يردُّه، ويُظْهِرَ الشَّكْوَى إلى مَنْ لا يَرْحَمُه، أضْعَفَ ما كان عن الطلب، وأقْبَحَ ما يكونُ به الكسبُ. فعِبتموني بذلك. وقد قال عَمْرُو بنُ العاص: اعْمَلْ لدنياك عملَ مَنْ يَعِيشُ أبَدًا، واعمل لآخرتك عملَ مَنْ يموتُ غَدًا.

وعبتموني حين زعمتُ أنَّ التبذير إلى مال القِمار، ومال المِيراث، وإلى مال الالتِقَاط، وحِباءِ الملوك، أسْرَعُ؛ وأنّ الحفْظ إلى المال المُكْتَسب، والغِنَى المُجْتَلَب، وإلى ما يُعْرضُ فيه

لذهاب الدِّين، واهتِضامِ العِرْض، ونَصَب البَدَن، واهتمام القلب أسْرَعُ؛ وأنّ مَنْ لم يَحْسُب ذهاب نفقته، و لم يَحْسُب دَخْلَه، ومن لم يَحْسُب الدَّخْل فقد أضاعَ الأصل؛ وأنّ مَنْ لم يَعْرِف للغِنَى قَدْرَه، فقد أذِنَ بالفقر، وطابَ نَفْسًا بالذُّلّ.

وزعمتُ أن كَسْبَ الحَلاَل مُضَمَّنٌ بالإنفاق في الحلال؛ وأن الخبيثَ يَنْزِع إلى الخبيث؛ وأنّ الطِّيِّب يَدْعُو إلى الطيّب، وأنّ الإنفاقَ في الهَوَى حِجابٌ دُونَ الحُقوق؛ وأنّ الإنفاقَ في الحقوق حِجَازٌ دُونَ الهوى. فعبتم عَليَّ هذا القولَ. وقد قال مُعَاوِيةُ: لم أرَ تَبْذيرًا قطُّ إلاّ وإلى جانبه حقٌّ مضيَّعٌ. وقد قال الحَسَنُ: إذا أردتُمْ أن تَعْرِفُوا مِنْ أينَ أصابَ مالَه، فانْظُروا في أيِّ شيء يُنْفِقُه؟ فإنّ الخبيثَ يُنْفَقُ في السَّرَف.

وقُلْتُ لكم بالشَّفَقة منّي عليكم، وبِحُسْن النَّظَرِ لكم، وبحفْظِكم لآبائكم، ولِمَا يجبُ في جِوَاركم، وفي مُمَالحتكم ومُلاَبَستِكم: أنتم في دار الآفات، والجوائحُ غَيْرُ مأمُونَات. فإنْ أحاطتْ بمال أحدِكم آفةٌ لم يَرْجِعْ إلى بَقِيَّة؛ فاحْرِزُوا النِّعمة باختلاف الأمكنة؛ فإنّ البَلِيَّةَ لا تَجْري في الجميع إلا مَعَ مَوْت الجميع. وقد قال عُمَرُ رضي الله عنه في العَبْد والأمة، وفي مِلْكِ الشَّاة والبعير، وفي الشيء الحقير اليسير: فَرِّقُوا في المنايا. وقال ابنُ سِيرِينَ لبعض البَحْرِيِّين: كيف تصنعون بأموالكم؟ قال: نُفَرِّقها بين السُّفُن، فإنْ عَطِبَ بَعْضٌ سلِم بعض. ولولا أنّ السلامة أكْثَرُ لما حَمَلْنا خَزَائِنَنَا في البحر. قال ابنُ سِيرِينَ: تَحْسَبُها خَرْقاءَ وهي صَنَاع.

وقلتُ لكم عِنْدَ إشْفاقي عليكم: إنّ للغِنَى سُكْرًا، وإنّ للمال لَنَزْوةً. فمن لم يحفظ الغِنَى مِنْ سُكْر الغِنَى فقد أضاعه، ومَنْ لم يَرْتَبِط المالَ بخَوْف الفَقْر فقد أهْمله فَعِبْتُمُوني بذلك. وقال زَيْدُ بنُ جَبَلة: ليس أحدٌ أفقرَ من غَنِيّ أمِنَ الفَقْرَ. وسُكْرُ الغنى أشدُّ من سكر الخمر.

وقُلْتُم: قد لَزِمَ الحثُّ على الحقوق، والتزهيدَ في الفُضُول، حتى صَار يَستعمِلُ ذلك في أشعاره بعد رَسَائِله، وفي خُطَبه بعد سائر كلامه. فمِنْ ذلك قوله في يحيى بن خالد:

عَدُوٌّ تِلاَدِ المال فيما يَنُوبُهُ ... مَنُوعٌ إذا ما منْعُه كان أحْزَمَا

ومِنْ ذلك قولُه في محمدِ بنِ زياد:

وخَلِيقَتان تُقيً وفَضْلُ تحرُّم   وإهانــــــــــةٌ في حَقِّه للمال

وعِبْتموني حينَ زَعمتُ أنّي أقدّم المالَ على العِلْم، لأنّ المالَ به يُغَاثُ العالِمُ، وبه تَقُوم النُفوس قَبْلَ أنْ تُعْرَفَ فَضِيلةُ العلم، وأنَّ الأصل أحقُّ بالتفضيل من الفَرْع، وأنّي قلت: وإنْ كنّا نستبينُ الأمورَ بالنُّفُوس، فإنّا بالكِفَاية نَستَبين، وبالخَلّة نَعْمَى.

وقلتم: وكيف تقول هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء، ومُقدَّم الأدَباء: العلماءُ أفضلُ أم الأغنياء؟ قال: بل العلماءُ. قيل: فما بَالُ العلماء يأتون أبوابَ الأغْنيَاء، أكثر ممّا يأتي الأغنياءُ أبوابَ العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفَضْل الغِنَى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم. فقلت: حالُهما هي القَاضِيةُ بينهما. وكيف يَستَوِي شيء تُرَى حاجةُ الجميع إليه، وشيء يُغْنِي بعضُهم فيه عن بَعْض؟

وعِبْتموني حين قلتُ: إنّ فَضْلَ الغِنَى على القُوت، إنّما هو كفضل الآلة تكون في الدار، إن احْتِيجَ إليها استُعملتْ، وإن استُغنِيَ عنها كانت عُدّة. وقد قال الحُضَيْن بن المُنْذِر: وَددْتُ أنَّ لي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، لا أنتفعُ منه بشيء. قيل: فما ينفعُك مِنْ ذلك؟ قال: لكثرة مَنْ يَخْدُمني عليه. وقال أيضًا: عليك بطلب الغِنَى، فلو لم يكن لك فيه إلا أنّه عِزٌّ في قلبك، وذُلٌّ في قلب غيرك، لكان الحَظُّ فيه جَسيما، والنفعُ فيه عظيما.

ولسنا نَدعُ سِيرةَ الأنبياء، وتعليمَ الخُلفَاء، وتأديبَ الحكماء، لأصحاب الأهْواء: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأمُرُ الأغنياءَ باتّخاذ الغَنَم، والفُقَراءَ باتخاذ الدَّجاج. وقال: "درهَمُك لمعاشك، ودِينُك لِمَعَادك".

فَقَسَّمُوا الأمور كلَّها على الدِّين والدنيا. ثم جعلوا أحدَ قِسْمَي الجميع الدِّرْهَمَ. وقال أبو بكر الصِّدّيقُ، رضي الله عنه: إنِّي لأبْغِض أهلَ البيت يُنْفقون رِزْقَ الأيَّام في اليوم. وكانوا يُبْغِضُونَ أهلَ البيت اللَّحِمِين.

وكان هِشامٌ يقول: ضع الدِّرهم على الدِّرهم يكون مالاً. ونَهَى أبو الأسْوَد الدُّؤليُّ، وكان حكيمًا أديبًا، وَدَاهيًا أريبًا، عن جُودِكُمْ هذا المولَّدِ، وعن كَرَمِكُمْ هذا المُسْتَحْدَث. فقال لابنه: إذا بَسَطَ الله لك الرِّزْقَ فابْسُط، وإذا قَبَضَ فاقْبِضْ. ولا تُجَاوِدِ الله، فإنّ الله أجْوَد منك. وقال: دِرْهمٌ من حِلٍّ يَخْرُج في حَقٍّ خير من عَشَرة آلاف قَبْضًا.

وتلقّطَ عُرُنْدًا مِنْ بَرِيم، فقال: تُضيعُون مِثْلَ هذا، وهو قُوتُ امْرِئ مُسْلم يومًا إلى الليلة! وتلقّطَ أبو الدَّرْدَاءِ حبَّاتِ حِنْطة، فَنَهَاهُ بَعْضُ المُسْرِفين. فقال: لِيَهْنِ ابنُ العَبْسيّة! إنَّ مِرْفَقَةَ المَرْءِ رِفْقُهُ في مَعِيشته.

فَلَسْتُمْ عَلَيَّ تَرُدُّون، ولا رأيَ تُفَنِّدُون. فقدِّمُوا النظرَ قبلَ العَزْم. وتذكّروا ما عليكُمْ، قبلَ أنْ تذكُروا ما لكم. والسلام.

نبدأ بأهْل خُراسانَ، لإكثار الناسِ في أهْل خُرَاسَان. ونَخُصُّ بذلك أهْلَ مَرْوَ، بقَدْر ما خُصُّوا به.

قال أصحابنا: يقول المَرْوَزِيُّ للزائر إذا أتاه، وللجَلِيس إذا طال جُلُوسُه: تغدّيتَ اليومَ؟ فإنْ قال: نعم، قال: لولا أنّك تغدَّيتَ لغدَّيتك بغَدَاءٍ طيِّب. وإن قال: لا، قال: لو كُنْتَ تَغَدَّيتَ لسَقَيْتُكَ خمسة أقْدَاح. فلا يَصيرُ في يده على الوَجْهَين قليلٌ ولا كثير.

وكنت في مَنْزِل ابن أبي كَرِيمَةَ، وأصلُه من مَرْوَ. فرآني أتوضَأ مِنْ كُوزِ خَزَفٍ، فقال: سبحان الله، تتوضأ بالعَذْب والبئرُ لك مُعْرِضَة! قلتُ: ليس بِعَذْب، إنّما هو مِنْ ماء البِئْر. قال: فَتُفْسِدُ علينا كُوزَنا بالمُلُوحة! فلم أدْرِ كيف أتخلّص منه؟

وحدّثني عَمْرُو بن نِهَيْوِيّ، قال: تَغَدَّيتُ يومًا عند الكِنْديّ. فدخلَ عليه رجلٌ كان له جارًا، وكان لي صديقًا. فلم يَعْرِض عليه الطعامَ ونحن نأكلُ. وكان أبخلَ مَنْ خَلَقَ الله. قال: فاستَحْييتُ منه، فقلتُ: سبحانَ الله، لو دَنَوْتَ فأصبْتَ معنا ممَّا نأكل! قال: قد والله فعلتُ، فقال الكِنْديّ: ما بَعْدَ الله شيء! قال عمرو: فَكَتَفه والله كَتْفًا لا يستطيعُ معه قَبْضًا ولا بَسْطًا، وتركه. ولو مَدَّ يَدَه لكان كافرًا، أو لكان قد جَعَلَ مع الله-جلّ ذِكْرُه-شَيْئًا!

وليس هذا الحديثُ لأهل مَرْوَ، ولكنّه من شَكْلِ الحديث الأوَّل.

وقال ثُمَامَةُ: لم أرَ الديكَ في بلدة قطُّ إلاّ وهو لاقِطٌ، يأخذ الحَبَّة بمنقاره، ثم يَلْفِظُها قُدَّامَ الدَّجاجة، إلاّ دِيَكَةَ مرو، فإنّي رأيت ديكة مَرْوَ تَسْلُبُ الدَّجاج ما في مناقيرها من الحَبّ! قال: فعلمتُ أنَّ بُخلهم شيء في طَبْع البلاد، وفي جَوَاهر الماء. فمنْ ثَمَّ عمّ جميعَ حيَوانهم.

فحدّثتُ بهذا الحديث أحمدَ بن رَشِيد، فقال: كنتُ عند شَيْخٍ مِنْ أهل مَرْوَ، وصَبِيٌّ لـه صغيرٌ يلعب بين يَدَيْه، فقلت له إمَّا عَابثًا وإمَّا مُمتَحِنًا: أطْعِمني من خُـبزكم، قـال: لا تُريده، هو مُرٌّ! هو كذا وكذا! إلى أن عَدَدْتُ أصْنَافًا كثيرة. كلُّ ذلك يَمْنَعُنيه ويُبغِّضُـهُ إليَّ! فضَحِك أبوه، وقال: ما ذُبنا؟ هذا مِنْ عِلْمه ما تَسْمَع! يَعْني أن البُخْل طَبْعٌ فيـهم، وفي أعْراقهم وطِينَتِهمْ.

وزَعَمَ أصحابُنا أنّ خُرَاسانيّة ترافَقُوا في منـزل، وصَبَرُوا عِنَ الارتفاق بالمصباح، مـا أمكنَ الصبرُ، ثم إنّهم تناهدوا وتخارجُوا. وأبَى واحدٌ منهم أنْ يُعينهم، وأنْ يَدْخل في الغُرْم معهم. فكانوا إذا جاء المصباحُ شَدُّوا عَيْنَيه بمنديل! ولا يَزَالُ ولا يزالون كذلـك إلى أن يَنَامُوا، ويُطفئُوا المصْباح. فإذا أطْفَئُوا أطْلَقُوا عينيه!

ورأيت أنا حمَّارةً منهم، زُهَاءَ خَمْسين رجلاً، يتغدّون علـى مَبَـاقِلَ بحَضْـرة قرْيـة الأعراب، في طريق الكُوفَة، وهم حُجَّاج. فلم أر مِنْ جَمِيع الخمسين رَجُلين يَأْكُلان مَعًا، وهم في ذلك متقارِبُون، يُحدِّث بعضُهم بعضًا. وهذا الذي رأيتُه منهم مِنْ غريب ما يَتَّفق للنَّاس.

حدّثني مُوَيْس بنُ عِمْران، قال: قال رجل منهم لصاحبه، وكانا إمَّا مُتَزامِلَيْن، وإمَّـا مترافقين: لِمَ لا نَتَطاعم، فإنَّ يد الله مَعَ الجماعة؟ وفي الاجتماع البركةُ. وما زالوا يقولون: طَعامُ الاثْنَيْن يكفِي الثلاثةَ وطعام الثَّلاثة يكفي الأربعةَ. فقال له صاحبه: لولا أنّي أعلـم أنّكَ آكَلُ مِنِّي لأدخلتُ لك هذا الكلامَ في باب النَّصيحة.

فلّما كان الغَدُ وأعادَ عليه القولَ، قال له: يا عبدَ الله، مَعك رغيفٌ ومعـي رغيـف. ولولا أنّك تريد أكثرَ، ما كان حِرْصُك على مُؤَاكلتي! تريد الحديثَ والمُؤانسة؟ اجْعَـل الطَّبقَ واحدًا، ويكونُ رغيف كلٍّ مِنَّا قُدَّامَ صاحبه. وما أشك أنك إذا أكلـت رغيفـك ونصف رغيفي ستجده مباركًا! إنما كان ينبغي أنْ أكونَ أجدُهُ أنا لا أنت.

وقال خَاقَانُ بن صُبَيْح: دخلتُ على رجل مِنْ أهْل خُرَاسَانَ ليلاً، وإذا هُوَ قـد أتانـا بمِسْرَجة فيها فَتِيلةٌ في غاية الدِّقّة، وإذا هو قد أُلْقَى في دُهْن المِسْرَجَة شيئًا من مِلْح، وقـد علَّقَ على عَمُود المَنَارة عُودًا بخَيْط، وقد حَزَّ فيه، حتى صَارَ فيه مكانٌ للرِّبـاط. فكـان

المصباحُ إذا كَادَ ينطفئُ أَشْخَصَ رأس الفَتِيلة بذلك. قال: فقلت له: ما بالُ العُود مَرْبوطًا؟ قال: هذا عودٌ قد تَشَرَّبَ الدُّهن. فإن ضَاعَ و لم يُحْفظ، احتجنَا إلى وَاحِدٍ عَطْشانَ. فإذا كان هذا دأبَنا ودأبَهُ، ضاع مِنْ دُهْنِنا في الشهر بقدر كفاية لَيْلة.

قال: فبيْنا أنا أتعجَّب في نفسي، وأسألُ الله-جلَّ ذِكْرُه-العافيَة والسَّتْرَ، إذْ دَخَل شيخٌ من أهل مَرْو، فنَظَرَ إلى العُود، فقال: يا أبا فُلان، فَرَرْتَ مِنْ شيء ووقعتَ في شَبيهٍ به.أما تعلم أنّ الرِّيح والشمسَ تأخذان من سائر الأشياء؟ أَوَلَيْسَ قد كنتُ أنَا جاهلاً مِثْلَك، حتى وفَّقني الله إلى ما هو أرْشَدُ. اربطْ-عافاك الله!-بَدَل العُود إبرةً أو مِسَلَّةً صغيرةً. وعلى أنْ العُود والخلال والقَصَبة ربما تعلَّقتْ بها الشَّعْرةُ من قُطْن الفَتيلة، إذَا سوَّيناها بها، فتشخَصُ معها. وربَّما كان ذلك سَبَبًا لانطفاء السِّراج. والحديدُ أمْلَسُ. وهو مع ذلك غير نَشَّاف.

قال خاقان: ففي تلك الليلة عَرَفْتُ فَضْلَ أهلِ خُراسانَ على سائر الناس، وفَضْلَ أهْلِ مرو على سائر أهلِ خراسانَ!

قال مُثَنَّى بنُ بَشِير: دخلَ أبو عبد الله المَرْوَزِيُّ على شيخ من أهل خُراسانَ، وإذا هو قد اسْتَصْبَحَ في مِسْرَجة خَزَفٍ من هذه الخَزَفِيّة الخُضْرِ. فقال له الشيخُ: لا يجيءُ والله منك أمرٌ صالح أبَدًا! عاتبتك في مسارج الحِجارة، فأعْتَبْتَني بالخَزَف. أوَ مَا علمتَ أنَّ الخَزَفَ والحجارةَ يَحْسُوانَ الدُّهنَ حَسْوًا؟ قال: جُعِلتُ فِداكَ! دفعتُها إلى صديق لي دَهَّان، فألقاها في المِصْفَاة شهرًا، حتَّى رَوِيَتْ من الدُّهن ريًّا لا تحتاج معه أبدًا إلى شيء. قال: ليس هذا أريد، هذا دواؤه يَسيرٌ. وقد وَقَعْتَ عليه. ولكن ما علمتَ أنَّ مَوْضِع النَّارِ من المِسْرَجة في طَرَف الفَتِيلة لا ينفكُّ من إحراق النّار، وتَجْفِيفه وتَنْشِيف ما فيه؟ ومتى ابتلَّ بالدُّهْن وتسَقَّاه، عَادَت النارُ عليه فأكلته. هذا دأْبُهُمَا. فلو قِسْتَ ما يَشْرب ذلك المكان من الدُّهن، بما يستمِدُّه طرفُ الفَتِيلة منه، لعلمتَ أنّ ذلك أكْثَرُه.

وبَعْدَ هذا، فإن ذلك الموضعَ من الفَتِيلة والمِسْرَجةِ لا يزال سائِلاً جاريًا. ويقال: إنَّك متى وضعتَ مِسْرَجة فيها مصباحٌ، وأخْرَى لا مصباحَ فيها، لم تلبثْ إلاَّ ليلةً أو لَيْلَتَيْنِ حتى ترَى السُّفْلَى ملآنةً دُهنًا. واعتَبِرْ أيضًا ذلك بالملح الذي يوضع تحت المِسْرجة، والنُّخالة التي تُوضع هناك، لتسويتها وتَصْوِيبها، كيفَ تجدهُما يَنْعَصِران دُهْنًا. وهذا كلُّه خُسْرانٌ

وغَبْنٌ، لا يتهاون به إلا أصحابُ الفساد. على أنَّ المُفْسدين إنَّما يُطعِمون الناسَ ويُسقون الناس، وهم على حال يستخلِفُون شيئًا، وإن كان رَوْثًا. وأنت إنَّما تُطعِمُ النارَ وتُسْقِي النار. ومَنْ أطعمَ النار جَعَله الله يومَ القيامة طعامًا للنار!

قال الشيخ: فكيف أصنَعُ؟ جُعِلتُ فِدَاك! قال: تَتَّخذُ قِنْديلاً. فإنَّ الزُّجاجَ أحْفظُ مِنْ غيره. والزُّجاجُ لا يعرف الرَّشْح ولا التَّشْف، ولا يَقْبَل الأوساخ التي لا تَزُول إلا بالدَّلك الشديد، أو بإحراق النار. وأيُّهما كان، فإنَّه يُعِيد المِسْرَجة إلى العَطَش الأوّل. والزُّجاجُ أبْقَى على الماء والتراب من الذهب الإبريز. وهو مع ذلك مَصْنوع، والذَّهبُ مخلوق. فإنْ فضَّلتَ الذهبَ بالصَّلابة، فضَّلتَ الزجاجَ بالصَّفاء.

والزجاجُ مُجَلٍّ، والذَّهبُ ستَّار. ولأنَّ الفتيلة إنَّما تكونُ في وَسطه، فلا تَحْمَي جوانبُه بوَهَج المِصباح، كما تَحْمَي بموضع النار من المِسْرَجة. وإذا وقع شُعاعُ النار على جَوْهر الزُّجاج صار المِصْباح والقِنْديلُ مصْباحًا واحدًا، ورَدَّ الضياءَ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه.

واعتَبِرْ ذلك الشُّعاع الذي يَسْقُط على وَجْه المِرآة، أو على وَجْه الماء، أو على الزُّجاجة، ثم انْظُرْ كيفَ يتضاعفُ نُوره. وإنْ كان سقوطُه على عين إنسان أعْشاه، وربما أعماه.

وقال جلَّ ذكره: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]

والزيتُ في الزجاجة نورٌ على نور، وضوءٌ على ضَوْء مُضَاعَف. هذا مَع فَضْل حُسْنِ القِنْديل على حُسْن مَسَارِج الحِجارة والخَزَف.

وأبو عَبْدِ الله هذا كان من أطْيَبِ الخَلْق وأمْلَحهم بُخْلاً، وأشدّهم أدَبًا. دخلَ على ذي اليَمِينَيْن طاهر بنِ الحسين، وقد كان يَعْرِفه بخُراسان بسبب الكلام. فقال له: مُنْذُ كَمْ أنت مُقِيمٌ بالعراقَ يا أبا عبدالله؟ فقال: أنا بالعراق مُنْذُ عشرين سنةً. وأنا أصُوم الدهرَ مُنْذُ

أربعين سنة. قال: فضحِك طاهر وقال: سألناك يا أبا عبد الله عن مسألة، وأجبتنا عن مسألتين!

ومن أعاجيب أهْل مَرْو ما سَمِعْناه من مشايخنا على وَجْهِ الدَّهر. وذلك أنَّ رجلاً من أهل مَرْوَ كان لا يزال يَحُجُّ ويَتَّجِر، وينزلُ على رَجُل مِنْ أهل العِراق، فيكرِمُه ويَكْفِيه مُؤنَتَه. ثم كان كثيرًا ما يقول لذلك العِراقيّ: ليتَ أني قد رأيتك بمَرْوَ، حتى أُكافِئَك لقديم إحسانك، وما تُجدِّدُ لي مِن البرّ في كُلِّ قَدْمَةٍ. فأمَّا ها هنا فقد أغْنَاك الله عَنِّي.

قال: فَعَرِضَتْ لذلك العِراقيّ بعد دَهْر طويل حاجةٌ في تلك الناحية. فكان مِمَّا هوَّن عليه مُكَابَدةَ السَّفَر، وَوَحْشَةَ الاغْتراب، مكانُ المَرْوَزِيّ هناك. فلما قَدِمَ مَضَى نَحْوَهُ في ثياب سَفَره، وفي عِمَامته وقَلَنْسُوَته وكِسائه، ليَحُطَّ رَحْلَه عنده، كما يَصْنَعُ الرجلُ بِثِقَتِه، ومَوْضِع أُنْسِه.

فلمَّا وجده قاعدًا في أصحابه أَكَبَّ عليه وعانَقَه. فلم يَرَهُ أَنْبَتَه، ولا سأل به سُؤالَ مَنْ رآه قطُّ. قال العِراقيُّ في نفسه: لَعَلَّ إنكارَه إيَّايَ لمكان القِناع. فرمَى بِقِناعه وابتدأ مَسْأَلَته. فكان له أَنْكَرَ. فقال: لعلَّه أن يكون إنَّما أُتِيَ من قِبَل العمامة، فنزعها. ثم انتَسَبَ وجدَّدَ مسألته، فوجده أشدَ ما كان إنْكارًا. قال: فَلعَلَّه إنَّما أُتِيَ من قِبَل القَلَنْسُوة.

وعَلِم المَرْوَزِيُّ أنه لم يَبْقَ شيءٌ يتعلَّق به المُتغافِلُ والمُتجَاهِلُ. قال: لو خرجتَ من جِلْدِك لم أعْرِفْك!

وزعَمُوا أنَّهم ربَّما ترافَقُوا وتَزَاملُوا، فتناهَدُوا وتلازَقُوا في شراء اللحم. وإذا اشْتَرَوُا اللحمَ قَسَموهُ قبل الطبخ، وأخَذَ كلُّ إنسان منهم نصيبَه، فشكَّه بخُوصَةٍ أو بخَيْط، ثم أرسلَه في خَلِّ القِدْر والتَّوابل. فإذا طَبَخُوا تناول كلُّ إنسان خَيْطَه وقد علَّمه بعلامة. ثم اقْتَسَمُوا المَرَق. ثم لا يزال أَحَدُهم يَسُلُّ من الخيط القِطْعة بعد القطعة، حتى يَبْقَى الحبلُ لا شيء فيه. ثم يجمعون خيوطهم. فإنْ أعَادُوا المُلازَقَةَ أعَادُوا تلك الخيوطَ، لأنها قد تشرَّبت الدَّسَمَ ورَوِيَتْ.

وليس تناهُدُهم من طَرِيق الرَّغْبة في المُشَاركة، ولكِنْ لأنَّ بضاعةَ كلِّ واحدٍ منهم لا تَبْلُغُ مقدارَ الذي يَحْتَمِل أن يُطْبخ وحْدَه، ولأن المُؤْنةَ تَخِفُّ أيضًا في الحَطَب والخَلِّ والثُّومِ

والتَّوَابِل. ولأنّ القِدْر الواحدةَ أمْكَنُ من أنْ يَقْدِر كلُّ واحدٍ منهم على قِدْر. فإنّما يختارونَ السِّكْبَاج[1]، لأنّه أبْقَى على الأيام، وأبْعَدُ من الفَساد.

حدثني أبو إسحاق إبراهيم بنُ سَيَّارٍ النَّظَّامُ، قال: قلتُ مَرَّةً لجارٍ كان لي من أهْل خُراسان: أعِرْني مِقْلاكم، فإنّي أحْتَاجُ إليه. قال: قد كان لنا مِقلىً ولكنّه سُرِق.

فاستَعرتُ من جارٍ لي آخر. فلم يلبث الخُرَاسانيُّ أن سَمِعَ نَشِيشَ اللحم في المِقْلى، وشمَّ الطَّباهَجَ. فقال لي كالمُغْضَب: ما في الأرض أعْجبُ منك. لو كنتَ خبَّرتني أنّك تريده لِلَحْم أو لشَحْمٍ لَوجدتَني أسرَعَ! إنّما خَشِيتُك تريدُه للباقِلّى. وحديدُ المِقْلَى يحترقُ إذا كان الذي يُقْلَى فيه ليس بدَسِم. وكيف لا أُعيرك إذا أردتَ الطَّباهَجَ، والمِقْلَى بعدَ الردّ من الطَّباهَجَ أحْسَنُ حالاً منه وهو في البيت!

وقال أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سَيَّارٍ النَّظَّامُ: دعانا جارٌ لنا، فأطعمنا تَمْرًا وسَمْنًا سِلاَءً، ونحن على خِوانٍ ليس عليه إلا ما ذكرتُ، والخراسانيُّ معنا يأكلِ. فرأيتُه يُقْطِرُ السمنَ على الخِوان، حتَّى أكْثَرَ من ذلك. فقلتُ لرجل إلى جَنْبي: ما لأبي فلانٍ يُضيع سَمْنَ القوم، ويُسيءُ المؤاكَلَة، ويَغْرِفُ فَوْقَ الحَقّ؟ قال: وما عرفتَ عِلَّته؟ قلتُ: لا والله! قال: الخِوانُ خِوانُه، فهو يُريد أن يُدَسِّمه، ليكونَ كالدَّبغ له. ولقد طَلَّق امرأتَه، وهي أمُّ أولاده، لأنّه رآها غَسَلَت خِوانًا له بماء حَارٍّ. فقال لها: هلاَّ مَسَحْتِه!

وقال أبو نواس: كان معنا في السفينة ونحن نريد بغداد رجل من أهل خراسان. وكان من عقلائهم وفهمائهم. وكان يأكل وحده، فقلت له: لم تأكل وحدك؟ قال: ليس علي في هذا الموضع مسألة. إنما المسألة على من أكل مع الجماعة؛ لأن ذلك هو التكلف. وأكلي وحدي هو الأصل. وأكلي مع غيري زيادة في الأصل.

وحدثني إبراهيم بن السندي، قال: كان على ربع الشاذروان[2] شيخ لنا من أهل خراسان. وكان مصححا، بعيدا من الفساد، ومن الرشا، ومن الحكم بالهوى. وكان حفيا

---

(١) السكباج: لحم يطبخ بخل، معرب .

(٢) حي من أحياء بغداد .

جدًا. وكذلك كان في إمساكه، وفي بُخْلِه وتدْنيقه في نفقاته. وكان لا يأكل إلا ما لا بُدَّ منه، ولا يَشْرَبُ إلاَّ ما لا بدَّ منه.

غيرُ أنَّه كان في غَداةِ كلِّ جُمُعةٍ يحمِلُ معه مِنديلاً فيه جَرْدَقتان[1]، وقِطَعُ لَحْمِ سِكْباج مُبَرَّد، وقِطَعُ جُبْنٍ، وزَيْتونات، وصُرَّةٌ فيها مِلْح، وأخرى فيها أُشْنان، وأربعُ بَيْضات، ليس منها بدّ. ومعه خِلالٌ.

ويَمْضِي وَحْدَه، حتى يَدْخل بَعْضَ بساتينِ الكَرْخ. ويطلبُ مَوْضِعًا تحتَ شجرة، وسْطَ خَضْرة، وعلى ماء جار. فإذا وَجَدَ ذلك جَلَسَ، وبَسَطَ بين يديْه المِنْديلَ، وأكل من هذا مرّةً، ومن هذا مَرّة. فإنْ وَجَد قَيِّمَ ذلك البُسْتانِ رَمَى إليه بدرهم، ثم قال: اشْتَرِ لي بهذا، أو أَعِطِني بهذا رُطَبًا، إنْ كان في زَمَانِ الرُّطَب، أو عِنَبًا، إنْ كان في زمان العنب. ويقول له: إيَّاكَ إيّاك أن تُحَابِيَني، ولكنْ تَجَوَّدْ لي، فإنّك إنْ فعلتَ لم آكُلْه، و لم أعُدْ إليك. واحْذَرِ الغَبْنَ، فإنَّ المغبونَ لا محمودٌ ولا مأْجُور.

فإن أتاه به أكل كلَّ شيءٍ معه، وكلَّ شيء أُتِيَ به. ثم تخللَّ وغسلَ يَدَيْه. ثم يَمْشِي مَقْدَارَ مائة خُطْوة. ثم يضعُ جنبه، فينامُ إلى وقتِ الجُمُعِة. ثم يَنْتَبِه فيغتسل، ويَمْضِي إلى المسجد. هذا كان دأبَه كلَّ جمعة.

قال إبراهيم: فَبَيْنَا هو يومًا من أيّامه يأكلُ في بعضِ المواضع، إذْ مرَّ به رجل فسلَّم عليه، فردَّ السلام. ثم قال: هَلُمَّ-عافاك الله! فلما نظر إلى الرجل قد انْثَنَى راجعًا، يريد أن يَطْفِرِ الجَدْوَلَ، أو يُعَدِّي النهر، قال له: مكانَكَ، فإنَّ العجلة من عمل الشيطان! فوقف الرجل.

فأقبل عليه الخُرَاسَانِيُّ وقال: تريدُ ماذا؟ قال: أريد أن أتغدَّى. قال: ولِمَ ذلك؟ وكيف طَمِعْتَ في هذا؟ ومَنْ أباح لك مالِي؟ قال الرجل: أوَليس قد دعوتَني؟ قال وَيْلَكَ! لو ظننتُ أنّك هكذا أَحْمَقُ ما رددتُ عليك السلام. الآيينُ[2] فيما نحن فيه أن نكون إذا

(١) الجردقة: الرغيف، معرب.

(٢) الآيين: بمعنى العادة أو القانون. أعجمي عربه المولدون.

ست انا الجالسَ وأنت المارّ، تبدأُ أنت فتسلّمُ. فأقول أنا حينئذٍ مُجيبًا لـــك: وعليكـــم لسلام. فإنْ كنتُ لا آكل شيئًا سكتُّ أنا، وسكتَّ أنت، ومضيتَ أنت، وقعدتُ أنـــا على حالي!

وإنْ كنتُ آكلُ فهاهنا بيان آخَرُ: وهو أن أبدأ أنا، فأقولَ: هَلُمَّ، وتجيبَ أنت، فتقول: هنيئًا. فيكونُ كلام بكلام. فأمَّا كلام بفَعَال، وقولٌ بأَكْل، فهذا ليس من الإنصاف! وهذا يُخْرِجُ علينا فَضْلاً كثيرًا!

قال: فَوَرَدَ على الرجل شيء لم يكن في حِسابه. فَشُهِر بذلك في تلك النَّاحية، وقيـــل له: قد أَعْفَيناك من السلام ومن تَكَلُّف الردّ. قال: ما بي إلى ذلك حاجة. إنّمـــا هـــو أنْ أعْفِيَ أنا نفسي مِن "هَلُمَّ"، وقد استقام الأمر!

ومِثْلُ هذا الحديث ما حدّثني به محمدُ بنْ يَسير، عن والٍ كان بفارِسَ، إمَّا أن يكـــون خالدًا أخا مَهْرَوَيْهِ أو غيرَه. قال: بَيْنَا هو يومًا في مجلِس، وهو مشغول بحسابه وأمْرِه، وقد احتجَب جُهْدَه، إذْ تَجَمَ شاعر مِن بين يَدَيْه، فأنشده شِعرًا مدحه فيه وَقَرَّظَه ومَجَّدَه. فلمّا فرغ قال: قد أحسنتَ. ثم أقبل على كاتبه فقال: أَعْطِهِ عَشَرَةَ آلافِ دِرْهم. ففرِح الشاعر فرحًا قد يُستَطَار له. فلمّا رأى حاله قال: وإنّي لأرى هذا القولَ قد وقع منك هذا المَوْقِعَ؟ اجعلْها عشرين ألفَ دِرْهم. وكاد الشاعرُ يخرج من جِلْده! فلّما رأى فَرَحَهُ قد تضـــاعف قال: وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول! أعطِه يا فلانُ أربعين ألفًا. فكـــاد الفرح يقتله. فلمّا رجعت إليه نَفْسُه قال له: أنت-جُعِلتُ فِدَاكَ!-رجل كريم. وأنا أعلـــم أنّك كلّما رأيتَني قد ازددتُ فرحًا زِدتَني في الجائزة. وقَبُولُ هذا مِنك لا يكون إلا من قِلّة الشكر له! ثم دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: سبحانَ الله! هذا كان يَرْضَى منك بأربعين درهمًا، تأمر له بأربعين ألفَ درهم! قال: وَيْلَكَ! وتريدُ أن تُعْطِيه شيئًا؟ قال: ومِن إنْفاذ أمرك بُدٌّ؟ قال: يا أحمق، إنّما هذا رجل سَرَّنا بكلام، وسَرَرْناه بكلام! هو حين زَعَمَ أنّي أحسن من القمـــر، وأشدُّ من الأسد، وأنَّ لِساني أَقْطَعُ من السيف، وأنّ أمْري أَنْفَذُ من السِّنان، جَعَلَ في يَدِي من هذا شيئًا أرجعُ به إلى شيء؟ ألسنا نعلم أنّه قد كذب؟ ولكنّه قد سَرّنا حين كَـــذَبَ

لنا. فنحن أيضًا نَسُرُّه بالقولِ، ونأمر له بالجوائز، وإنْ كان كذِبًا. فيكونُ كَذِبٌ بكذبٍ وقولٌ بقَوْل. فأمَّا أنْ يكون كِذبٌ بِصدق، وقَوْلٌ بِفِعل، فهذا هو الخُسْران الذي ما سَمِعْتُ به!

ويقال إنّ هذا المَثَلَ الذي قد جرَى على ألسنة العوامِّ مِنْ قولهم: ينظر إليّ شَزْرًا، كأنّي أكلتُ اثنين وأطعمتُه واحدًا، إنّما هو لأهلِ مَرْوَ.

قال: وقال المَرْوَزيُّ: لولا أنّني أبني مدينة لبنيتُ آريًّا(1) لدابّتي.

قال: وقلتُ لأحمدَ بن هِشام، وهو يبني دارَهُ ببغدادَ: إذا أراد الله ذَهَاب مالِ رجلٍ سلَّط عليه الطِّينَ والماء. قال: لا، بل إذا أراد الله ذَهَابَ مالِ رجُل جَعَلَه يَرْجُو الخلف! والله ما أهلك الناسَ، ولا أَقْفَرَ بيوتَهم، ولا ترك دُورهم بَلاقِعَ(2) إلا الإيمانُ بالخَلَفِ! وما رأيت جُنَّةً قطُّ أوْقَى من اليأس!

قال: وسَمِعَ رجلٌ مِن المَرَاوِزَةِ الحسنَ وهو يَحُثُّ الناس على المعروف، ويأمر بالصَّدقة، ويقول: ما نَقَصَ مالٌ قَطُّ من زكاة، ويَعِدُهُمْ سُرْعةَ الخَلَفِ. فتصدّقَ بماله كلِّه، فافتقر. فانتظرَ سنةً وسنةً. فلمَّا لم ير شيئًا بكَّر على الحسن فقال: حَسَنٌ ما صنعتَ بي! ضَمِنْتَ لي الخَلَف، فأنفقتُ على عِدَتِك. وأنا اليومَ مُذْ كذا وكذا سنةً أنتظِرُ ما وعدتَ، لا أرى منه قليلاً ولا كثيرًا! هذا يَحِلّ لك؟ اللصّ كان يصنع بي أكثَرَ من هذا؟

والخَلَفُ يكون مُعجَّلاً ومُؤجَّلاً. ومن تَصَدَّق وتَشَرَّط الشُّروطَ، استحقَّ الحِرْمَانَ. ولو كان هذا على ما تَوَهَّمه المَرْوَزيُّ لكانت المِحْنَةُ فيه ساقطةً، ولَتَرَكَ الناسُ التِّجارةَ، ولما بَقِيَ فقير، ولَذَهبت العبادة.

أصبح ثُمَامَةُ شديدَ الغمّ حين احترقتْ دارُه. وكان كلَّما دخل عليه إنسان قال: الحرِيقُ سريع الخلف! فلمّا كثُرَ ذلك القولُ منهم قال: فَلْنستحرِق الله! اللهم إنّي أستحرِقُك فأحرِق كلَّ شيء لنا!

---

(1) الآري: محبس الدابة. والجمع الأواري.

(2) دار بلقع، وديار بلاقع: خالية مقفرة.

وليس هذا الحديث من حديث المراوزة، ولكنّا ضممناه إلى ما يُشاكلُه.

قال سَجّادة، وهو أبو سَعِيدٍ سجّادة: إنّ أُناسًا من المَرَاوِزَةِ إذا لَبِسوا الخِفَافَ في السّتّة الأشهر التي لا ينزِعون فيها خِفافهم، يمشون على صُدُور أقدامهم ثلاثةَ أشهر، وعلى أعْقاب أرجلهم ثلاثَة أشهر، حتى يكونَ كأنّهم لم يلبسوا خِفَافهم إلا ثلاثَة أشهر مخافةَ أن تَنْجرد نِعالُ خِفافِهم أو تَنْقَب.

وحكى أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سَيّارٍ النظّامُ عن جاره المروزيّ، أنّه كان لا يلبَس خُفًّا ولا نعلاً، إلى أن يذهب النَّبْقُ اليابس، لكثرةِ النَّوَى في الطريق والأسواق.

قال: ورآني مَرَّةً مَصَصْتُ قَصَبَ سُكّر، فجمعتُ ما مصصتُ ماءه لأرميَ به. فقال: إنْ كنتَ لا تُنورَ لك ولا عِيال، فَهَبْهُ لِمن له تُنُورٌ وعليه عِيال. وإيّاك أن تُعَوِّد نفسك هذِه العادةَ في أيّام خِفّة ظهرِك؛ فإنّك لا تدري ما يأتيك من العيال.

المبرد

هو: محمد بن يزيد بن عبدالأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد، إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار مولده بالبصرة ووفاته ببغداد من كتبه "الكامل" و"المذكر والمؤنث" و"المقتضب" و"التعازى والمراثى" و"شرح لامية العرب" و"إعراب القرآن" و"طبقات النحاة البصريين".

راجع ترجمته في:

بغية الوعاة (١١٦)، ووفيات الأعيان (١/٤٩٥)، وسمط اللآلى (٣٤٠)، والسيرة في (٩٦)، تاريخ بغداد (٣/٣٨٠)، آداب اللغة (٢/١٨٦)، ولسان الميزان (٥/٤٣٠)، ونزهة الألباب (٢٧٩)، وطبقات النحويين (١٠٨-١٢٠) ومقدمة تحقيق الكامل للدكتور / عبد الحميد هنداوي ـــ ط دار الكتب العلمية ـــ بيروت.

له في اختصار الخطب والتحميد والمواعظ

كان الحسن يقول : الحمد لله الذي كلفنا ما لو كلفنا غيره لصرنا فيه إلى معصيتـــه، وآجرنا على ما لابد لنا منه. يقول : كلفنا الصبر، ولو كلفنا الجزع لم يمكنا أن نقيم عليه، وآجرنا على الصبر، ولابد لنا من الرجوع إليه.

وكان على بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول عند التعزية: عليكم بالصبر، فإن به يأخذ الحازم، وإليه يعود الجازع.

وقال للأشعث: إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور.

وقال الجريمي:[1]

ولو شئت أنْ أبكي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ، ولَكنْ سَاحَةُ الصَّبرِ أَوْسَعُ[2]

وفي هذا الشعر وإن لم يكن من هذا الباب:

وأَعْدَدْتُهُ ذُخْرا لِكُلِّ مُلِمَّةٍ وسَهْمُ المَنَايا بالذَّخَائر مُولَع

وخطب[3] أبو طالب بن عبد المطلب لرسول الله ﷺ في تزويجه خديجة بنت خويلـد - رحمة الله عليها - فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعـل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمدًا بن عبد الله ابـــن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبـــلا، وإن كان من المال قل[4] فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد

---

(١) ديوانه ق ٢١/٢٩ص٤٣.

(٢)ولو شئت ... البيتان للخزيمي في ديوانه ص ٤٣

(٣) انظر الفاضل ١٨ .

(٤) القل: القليل. ومن كلامهم : له القل والذل أي القلة والذلة.

رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي. فهذه الخطبة من أقصد خطب الجاهلية.

ومن جميل محاورات العرب ما روي لنا عن يحيي بن محمد بن عروة عن أبيه عن جده قال: أقحمت السنة علينا النابغة الجعدي، فلم يشعر به ابن الزبير حين صلى الفجر حتى مثل بين يديه يقول: [1]

حَكَيْتَ لنا الصِّدِّيق وليتنا ... وعثمان والفاروقَ فارتَاحَ مُعْدِمُ
وسَوَّيْتَ بين الناس في العدل فاستووا ... فَعَادَ صباحا حالِكُ الليل مُظْلِمُ
أتاك أبو ليلى يشق به الدجى ... دجى الليل جَوَّابُ الفلاة عثمثم
لترفع منه جانبا ذعذعت به ... صروف الليالي والزمان المصمِّم

قال له ابن الزبير: هون عليك أبا ليلى فأيسر وسائلك عندنا الشعر، أما صفوة أموالنا فلبني أسد ، أما عفوتها فلآل الصديق، ولك في بيت المال حقان: حق لصحبتك رسول الله-ﷺ-وحق لحقك في فيء المسلمين، ثم أمر له بسبع قلائص وراحلة رحيل، ثم أمر بأن توقر له حبا وتمرا، فجعل أبو ليلى يأخذ التمر فيستجمع به الحب فيأكله، فقال له ابن الزبير: لشد ما بلغ منك الجهد يا أبا ليلى ؟! فقال النابغة : أما على ذلك لسمعت رسول الله ﷺ يقول : "ما استرحمت قريش فرحمت، وسئلت فأعطت، وحدثت فصدقت، ووعدت فأنجزت، فأنا والنبيون على الحوض فراط لقادمين"[2]

قوله: "أقحمت السنة" يكون على وجهين : يقال : "اقتحم" إذا دخل قاصدا، وأكثر ما يقال من غير أن يدخل، ويكون من "القحمة" وهي السنة الشديدة، وهو أشبه الوجهين، والآخر حسن. و "السنة": الجدب، يقال: أصابتهم سنة: إذا أصابهم جدب،

---

(١) شعره ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) انظر الحديث في الإصابة ٦/٢٢١برقم ٨٦٣٩، والفائق ٣/٢٠٠، والنهاية ٣/٤٣٤و ٤/٧٣، ومجالس ثعلب ٢٦/٢٧ ، والأغاني ٥/٢٩. والذي في الحديث : "فـراط لقاصفين"أو "فـراط القاصفين" والفراط المتقدمون ، والقاصفون المزدحمون.

ومن ذا قوله جل وعز: [ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين][1]

وقولـــه :"صفوة" فهو في معنى الصفو، وأكثر ما يستعمل الكسر، والباب في المصـــدر للحال الدائمة: الكسر ، كقولك : حسن الجلسة والركبة والنيمة، كأنما خلقة. و"العفوة" إنما هو ما عفا، أي ما فضل. و[خذ العفو][2] قالوا: الفضل، وكذلك قوله جـــل اسمـــه: [ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو][3]

وقوله : "عثمثم" يريد: الموثق الخلق الشديد.

و "ذعذعت" أي أذهبت ماله وفرقت حاله.

وقولـــه : "راحلة رحيل"[4] أي قوية على الرحلة معودة لها ، ويقال : فحل فحيـــل ، أي مستحكم في الفحلة، وفي الحديث: أن ابن عمر قال لرجل: اشتر لي كبشا لأضحى به أملح واجعله أقرن فحيلا [5].

وقوله : "فأنا والنبيون على الحوض فراط" "الفارط": الذي يتقدم القوم فيصلح لهـــم الدلاء والأرشية وما أشبه ذلك من أمرهم حتى يردوا ، ومن ذلك قول المسلمين في الصلاة على الطفل: " اللهم اجعله لنا سلفا وفرطا"[6] وجاء في الحديث عن النبي-ﷺ-: " أنـــا

---

(١) الأعراف: ١٣٠.

(١) الأعراف: ١٩٩.

(٢) البقرة : ٢١٩.

(٤)" الرحيل من الإبل: الصبور على السير، و لم أسمع منه فعلا، إلا في النعوت، ناقة رحيـــل وجمـــل رحيل. حاشية عند ف " يعني رواية ابن الإفليلي.

(٥) انظر النهاية ٣/٤١٧، واللسان (فحل).

(٦) أخرجه البخاري تعليقا بصيغة الجزم(٣/٢٤٢/فتح)في كتاب الجنائز، باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة، ولفظه:"وقال الحسن: يقرأ على الطفل بفاتحة الكتاب ويقول: اللهم اجعله لنا [illegible] لنا وسلفا وأجرا" . وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/٢٤٢) "وصلة عبد الوهاب بن [illegible] الجنائز "اهـ".

فرطكم على الحوض"[1] وكان يقال: يكفيك من قريش أنها أقرب الناس من رسول الله- ﷺ- نسبا، ومن بيت الله بيتا، ويقال: إن دار أسد بن عبد العزى كان يقال لها : رضيع الكعبة، وذلك أنها كانت تفيء عليها الكعبة صباحا وتفيء على الكعبة عشيا ، وإن كان الرجل من ولد أسد ليطوف بالبيت فينقطع شسعه فيرمي بنعله في منزلة فتصلح له، فإذا عاد في الطواف رمى بها إليه. وفي ذلك يقول القائل:

لِهَاشِمٍ وزُهَيْرٍ فَرْعُ مَكْرُمَةٍ ... بحيثُ حَلَّتْ نُجُومُ الكَبْشِ والأَسَدِ

مُجَاوِرُ البيتِ ذي الأركانِ بيتُهُما ... ما دُونَهُمْ في جِوَارِ البيتِ من أَحَدِ

وقال آخر:

سمين قريش مانعٌ مِنْكَ لَحْمَهُ ... وَغثٌّ قريشٍ حيثُ كانَ سَمِينُ[2]

وقال آخر:

وإذَا ما أَصْبَتَهُ من قريشٍ ... هاشِمِيًّا أَصَبْتَ قَصْدَ الطريقِ

وقال حرب بن أمية لأبي مطر الحضرمي يدعوه إلى حلفه ونزول مكة:

أَبَا مَطَرٍ هَلُمَّ إلى صَلاحٍ ... فَيَكْفِيكَ[3] النِّدَامَى مِنْ قُرَيْشِ[4]

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في "الرقاق" باب : في الحوض ، (٤٧١/١١) ، "والفتن" برقم ٧٠٤٩، ومسلم في "الطهارة"باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء. برقم "٢٤٩" والإمارة برقم "١٨٢٢" ، والفضائل برقم "٢٢٨٩"، ٢٢٩٠، ٢٢٩٥ - ٢٢٩٧ ، ٢٣٠٥.

(٢) رواية البيت : -

سمين قريش مانع منك نفسه ... وغث قريش حيث كان سمين

البيت لابن ميادة في الأغاني ٣٠٨/٢ .

(٣) وبهامش بعض النسخ ما نصه: في رواية ابن شاذان: فتكفيك الندامى من قريش في سائر النسخ : "فتكنفك"، ولعله تحريف.

وانظر اللسان (صلح) ومعجم البلدان(صلاح) ٤١٩/٣ .

(٤) الأبيات من الوافر ، وهي لحرب بن أمية أو للحارث بن أمية في لسان العرب ٥١٧/٢(صلح) ،

وتَـأْمَنْ وَسْـطَهُمْ وتَعِيـشَ فِيـهِمْ أَبَـا مَطَـرٍ هُدِيـتَ بِخَـيْرِ عَيْـشِ
وتَسْـكُنَ بَلْـدَةً عَـزَّتْ قديمًـا وَتـأْمَنَ أنْ يَـزُورَكَ رَبُّ جَيْـشِ

"صلاح" اسم من أسماء مكة[1]. وكان مكة بلدا لقاحا، واللقاح: الذي ليس في سلطان ملك، وكانت لا تغزى تعظيما لها، حتى كان أمر الفجار ، وإنما سمى الفجار لفجورهم إذ قاتلوا في الحرم، وكانت قريش تعز الحليف وتكرم المولى وتكاد تلحقه بالصميم، وكانت العرب تفعل ذلك ، ولقريش فيه تقدم.

وتاج العروس ٥٤٩/٦ (صلح)والتنبيه والإيضاح ٢٥٣/١، ولحرب بن أمية في أساس البلاغة(صلح) وبلا نسبة في المخصص ١٨١/١٣، وجمهرة اللغة ص ٥٤٣.

(١) بهامش بعض النسخ ما نصه في الأصل: صلاح، بالتنوين. قال المهلبي: صلاح، بغير تنوين ، وهو اسم لمكة ويروى صلاح بالضم. ابن شاذان: هي صلاح في وزن حذام وقطام : اسم من أسماء مكة.

ابن مسكويه

هو: أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه أبو علي: مؤرخ بحاث، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفى بها، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق والتاريخ والأدب والإنشاء له كتب عديدة منها: "تجارب الأمم وتعاقب الهمم"، و"تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق"، و"طهارة النفس"، و"آداب العرب والفرس"، و"الفوز الأصغر"، و"ترتيب السعادات"، و"رسالة في ماهية العدل"، و"ندم الأحباب وجليس الأصحاب".

راجع ترجمته في: إرشاد الأديب (٢/٤٩)، والقفطي (٢١٧)، والإمتاع والمؤانسة (١/٣٢)، وآداب اللغة (٢/٣١٧)، الذريعة (٤/٦٦)، طبقات الأطباء (١/٢٤٥)، وهدية العارفين (١/٧٣)، ودائرة المعارف الإسلامية (١/٢٧٧)..

يجب عليك متى حصل لك صديق أن تُكثر مُراعاته وتُبالغ في تَفقّده، ولا تَستهين باليَسير من حقة عند مُهمّ يعرض له أو حادث يحدُث به، فأما في أوقات الرخاء فينبغى أن تَلْقاه بالوجه الطَلْق والخُلُق الرَحْب، وأن تُظْهِر له في عينك وحركاتك وفي هَشاشتك وارتياحك عند مُشاهدته. إياك ما يَزْداد به في كلّ يوم وكل حال ثقة بمودتك وسكونا إليك، ويَرى السرور فى جميع أعضائك التى يظهر السرور فيها إذا لَقِيَك؛ فإنّ التَّحَفِّيَ الشديد عند طَلْعة الصَديق لا يَخفى، وسُرور الشكل بالشكل أمْرٌ غير مُشْكِل. ثم ينبغى أن تَفعل مثل ذلك بمن تَعْلَم أنه يُؤثِره ويُحبهّ من صديق أو وَلَدٍ أو تابع أو حاشيةٍ، وتُثنى عليهم من غير إسراف يَخرج بك إلى المَلَق الذي يَمْقُتُك عليه، ويَظْهَر له منك تَكَلُّفٌ فيه، وإنما يتم لك ذلك إذا تَوَاخَيْتَ الصّدق في كل ماتُثنى به عليه، والزَمْ هذه الطريقة؛ حتى لا يقع منك تَوانٍ فيها بوجهٍ من الوجوه وفي حال من الأحوال؛ فإن ذلك يَجْلُب المحبة الخالصة ويُكْسب الثقة التامة، ويُهدْيك مَحَبةّ الغُرَباء ومَن لا معرفة لك به وكما أن الحمَام إذا ألف بُيُوتنا وآنس لمجَالسنا وطاف بها يَجلُب لنا أشكاله وأمثاله، فكذلك حالُ الإنسان إذا عرفَنا واختلط بنا اختلاط الراغب فينا الآنس بنا بل يزيد على الحيوان الغَير الناطق بحُسْن الَوصْف وجميل الثناء ونشْر المحاسن. واعلم أن مشاركة الصَديق في السراء إذا كنت فيها وإنْ كانت واجبة عليك حتى لا تستأثرها ولا تختص بشيء منها؛ فإن مشاركته في الضراء أوجب ومَوْقعها عنده أعظم. وانظر عند ذلك إن أصابَتْه نَكْبة أو لَحَقَتْه مصيبة أو عَثَر به الدهر كيف تكون مُواساتُك له بنفسك ومالكِ وكيف يظهر له تَنَقُّدُك ومراعاتك، ولا تَنْتَظِرَنّ به أن يسألَكَ تَصْريحا أو تَعْريضا بل اطّلعْ على قلبه واسبق إلى ما في نفسه وشاركْه في مَضَض ما لَحِقه لَيخفّ عنه وإن بلغت مرتبة من السلطان والغنىَ فاغْمس إخوانك فيها من غير امتنانٍ ولا تَطَاوُل وإن رأيت من بعضهم نُبواً عنك أو نُقصانا مما عَهِدته فداخله زيادة مُداخلة، واختلط به واجتذبه إليك فإنك؛ إن أنفْتَ من

ذلك أو تَدَاخلك شيء من الكبر والصَّلَف عليهم انتقضَ حَبْلُ المودة وانْتَكَثَتْ قوتُه، ومع ذلك فلستَ تأمَنُ أن يزولوا عنك فتستحي منهم وتُضْطَر إلى قَطيعتهم حتى لا تنظر إليهم ثم حافظْ على هذه الشروط بالمداومة عليها، لتَبْقى المودة على حالٍ واحدة وليس هذا الشرط خاصا بالمودة بل هو مُطَّرد في كل ما يَخُصّك أعني أن مَركوبَك وملبوسَك ومنزلك متى لم تُراعها مراعاة متصلةً فَسَدَت وانتقضت، فإذا كانت صورة حائطك وسطوحك كذلك ومتى غَفَلْت أو توانيتَ لم تأمن تَقَوُّضَه وتَهَدُّمَه فكيف ترى أن تَجْفو من تَرْجوه لكل خَير وتَنْتظر مشاركته في السَّرَّاء والضَّرَّاء ومع ذلك فإن ضرر تلك يَختص بك بمنفعة واحدة وأما صَديقُك فَوُجوه الضرر التي تدخُل عليك بجَفائه وانتفاض مَوَدّته كثيرةٌ عظيمة ذلك أنه يَنْقَلب عَدُوّا وتَتَحوّل منافعُه مَضارًا فلا تأمن غوائلَهُ وعداوته مع عَدَمك الرغائبَ والمنافع به وينقطع رجاؤك فيما لا تَجد له خَلَفا ولا تستفيد عنه عوضا ولا يَسُدّ مَسَدّه شيء، وإذا راعيت شروطه وحافظتَ عليها بالمداومة أمِنْتَ جميع ذلك، ثم احْذَر المراء معه خاصة وإن كان واجبا أن تَحْذَره مع كل أحد، فإن مُماراة الصَّديق تَقْتَلع المودّة من أصلها لأنها سببُ الاختلاف، والاختلافُ سببُ التبايُن الذي هَرَبْنا منه إلى ضده وقَبَّحْنا أثَرَه واخترنا عليه الأُلْفة التي طلبناها وأثنينا عليها وقلنا إن الله عز وجل دَعا إليها بالشريعة القويمة، وإني لأعرف مَن يؤْثر المراء ويزعم أنه يَقْدَح خاطره ويَشْحَذ ذهنه ويُثير شُكوكَه فهو يتعمَّد في المحافلِ التي تَجْمَع رؤساء أهل النظر ومُتعاطي العُلوم مُماراة صَديقه ويَخْرُج في كلامه معه إلى ألفاظ الجُهال من العامّة وسُقّاطِهم ليزيد في خَجَل صديقه، وليُظْهر تَبَلُّجه وليس يفعل ذلك عند خَلْوَته به ومُذاكَرَته له وإنما يفعله حين يَظُنّ به أنه أدَق نظرا، أو أحضر حُجّة وأغْزَر علما وأحَدّ قريحة فما كنتُ أُشَبّهه إلا بأهل البغي وجَبابرة أصحاب الأموال والمُشَبَّهين بهم من أهل البدَع؛ فإن هؤلاء يستحقر بعضُهم بعضا، ولا يزال يُصَغّر بصاحبه ويَزْدري على مُرُوءته ويَتَطَلَّبُ عُيوبَه ويَتَتَبَّع عَثَراته ويُبالغ كلُّ واحد فيما يقدر عليه من إساءة صاحبه حتى يؤدي بهم الحال إلى العَداوة التامة التي يكون معها السعاية وإزالة النعم، وتُجاوز ذلك إلى سَفْك الدَّم وأنواع الشُّرور فكيف يثْبُتُ مع المراء محبةٌ ويُرْجَى به أُلْفَةٌ، ثم احْذَر في صَديقك إن كنت متحققا بعِلْم أو مُتحَلّيا

بأدب أن تَبْخَل عليه بذلك الفنّ أو يرى فيك أنك تُحِبّ الاستبداد دونهَ والاستئثار عليه؛ فإن أهل العلم لا يَرَى بعضُهم في بعض ما يراه أهلُ الدنيا بينهم ذلك أن مَتاع الدنيا قليل فإذا تَزاحم عليه قومٌ ثَلَم بعضُهم حالَ بعض ونَقص حَظُّ كل واحد من حَظّ الآخر، وأما العلم فإنه بالضِّدِّ وليس أحد ينقص منه ما يأخُذه غيرُه، بل يَزْكُو على النفقة ويَرْبُو مع الصَّداقة ويَزيد على الإنفاق وكثرة الخرج، فإذا بَخل صاحب علْم بعلْمه فإنما ذلك لأحوالٍ فيه كُلُّها قبيحة، وهي أنه إما أن يكون قليلَ البضاعة منه فهو يَخاف أن يَفْنَى ما عنده أو يَرِد عليه ما لاَ يعرفه فيزول تَشرُّفه عند الجُهال وإما أن يكون مكتسبا به فهو يَخْشَى أن يَضيق مكسَبُه به ويَنْقُص حَظّه منه وإما أن يكون حَسودا والحسود بعيدٌ من كل فَضيلة، لا يَوَدُّه أحدٌ وإني لأعرف مَن لا يَرْضَى بأن يبخل بعلم نفسه حتى يَبْخَل بعلم غيره ويُكْثر عَتْبَه وسَخَطه على مَن يُفيد غيره من التلاميذ المستحقين لفائدة العلم وكثيرا ما يَتوصل البعضُ إلى أخذ الكُتب من أصحابها ثم مَنْعِهم منها وهذا خُلُق لا تَبْقى معه مَوَدّة، بل يَجلُبُ إلى صاحبه عَداوات لا يحْسَبُها ويَقْطَعُ أطْماعَ أصدقائه من صَداقته ثم احْذَر أن تَنْبسط بأصحابك ومن يَخْلو بك من أتباعك وتَحمل أحدا منهم على ذكْر شيء في نفسه ولا تُرَخّص في عَيْب شيء يتّصل به فَضْلا عن عَيْبه، ولا يَطْمَعَنّ أحدٌ في ذلك من أولِي أنْسابك والمُتصلين بك لاجدًّا ولا هَزْلا وكيف تَحتَمِلُ ذلك فيه وأنتَ عَيْنُه وقلْبه وخليفتُه على الناس كلهم، بل أنتَ هو فإنه إن بلغه شيء مما حذرتك منه لم يشك أن ذلك كان عن رأيك وهَواك فَيَنْقَلب عَدُوّا ويَنفر عنك نُفُور الضّدّ فإن عرفتَ منه أنتَ عَيْباً فوافقهْ عليه مُوافقةً لطيفة ليس فيها غِلْظة فإن الطبيب الرفيق ربما بَلَغ بالدواء اللطيف ما يبلُغه غيرهُ بالشق والقطع والكي بل ربما تَوَصَّل بالغذاء إلى الشفاء، واكتفى به عن المعالجة بالدواء ولستُ أُحبَ أن تُغضى عما تَعْرفه في صَديقك وأن تترك موافقته عليه بهذا الضرب من الموافقة فإنِ ذلك خيانة منك ومسامحة فيما يعود ضَرَرُه عليه ثم احْذَر النَميمة وسَماعَها وذلك أن الأشرار يَدْخُلون بين الأخيار في صورة النُّصَحاء فَيوهِمونَهم النصيحة ويَنقُلون إليهم في عُرضْ الأحاديث اللذيذة أخبار أصدقائهم مُحرّفةً مُموهة، حتى إذا تجاسروا عليهم بالحديث المختُلَقَ يُصرّحون لهم بما يُفْسد مودّاتهم ويُشوه وجوهَ أصدقائهم

إلى أن يُغْض بعضُهم بعضا وللقُدماء في هذا المعنى كُتُبٌ مؤلفةٌ يُحَذّرون فيها من النميمة ويُشبِّهون صورةَ النمام بمنَ يحُكُّ بأظافيره أصولَ البُنْيان القوية، حتى يؤثر فيها ثم لا يزال يزيد ويُمْعن حتى يُدْخل فيها المِعْوَل فَيَقْلَعَه من أصله ويَضْربون له الأمثال الكثيرة المُشبَّهَة بحديث الثَّوْر مع الأسد في كتاب كَليلةَ ودمْنَة، ونحن نكتفي بهذا القَدْر من الإيماء، لئلا نَخْرُج عَمَا بَيَّنّا عليه مَذْهَبَنا من الإيجاز في الشرح ولستُ أترك مع الإيجاز والاختصار تعظيم هذا الباب وتكريره عليك؛ لتعلم أن القُدَماء إنما أَلّفوُا فيه الكتب، وضربوا له الأمثال، وأكثروا فيه من الوَصايا لما وراءهَ من النَّفْع العظيم عند السامعين من الأخيار ولِما خافوه من الضَّرر وراءَه من النَّفْع العظيم عند السامعين من الأخيار، ولِما خافوه من الضَّرر الكثير على من يَستَهين به من الأغْمار، وليُعلْم المَثَل المضروب في السّباع القوية إذا دخَل عليها الثَّعْلَب الرَّوّاغ على ضَعْفه أهْلَكَها ودَمَّرَها، وفي المُلوك الحُصَفاء يَدْخُل بينهم أهل النميمة في صورة الناصحين حتى يُفْسدوا نيَّتَهم على وُزرائهم المُبالغين في نصيحتهم، المجتهدين في تثبيت ملكهم إلى أن يغضبوا عليهم ويصرفوا بها عُيونَهم عنهم ويَصيروا من مَحبّتهم وإيثارهم على آبائهم وأولادهم إلى أن لا يَمْلؤا عيونَهم منهم وإلى أن يبْطشوا بهم قَتلاً وتَعْذيبا وهم غيرُ مُذْنبين ولا مُجترَمين ولا مُستَحقين إلا الكرامة والإحسان فإذا بلغ بهم من الإفساد والإضرار ما بَلَغوه من هؤلاء، فبالأحْرَى أن يَبْلُغوه منا إذا لم يجدوه في أصْدقائنا الذين اخترناهم على الأيام وادّخَرناهم للشدائد وأحْلَلناهم مَحَلّ أرواحنا وزدناهم تَفَضّلا وإكراما ويَتَبَيّنَ لك من جميع ما قَدّمناه أنّ الصداقة وأصناف المحَبّات التي تتمّ بها سعادة الإنسان من حيث هو مَدَنيٌّ بالطبع إنما اختلفتْ ودخل فيها ضُروب الفَساد، وزال عنها معنى التَّأخي وعرض لها الانتشار حتى احتَجْنا إلى حِفْظها والتَّعَب الكثير بنظامها من أجْل النَقائض الكثيرة التي فينا وحاجتنا إلى إتمامِها مع الحوادث التي تَعْرِض لنا من الكَوْن والفساد، فإنّ الفضائل الخلقيّة إنما وُضعَت لأجل المعُاملات والمعُاشرات التي لا يتم الوجود الإنساني إلا بها، ذلك أن العَدْل إنما احتيج إليه لتصحيح المعاملات وليَزُولَ به معنى الجَوْر الذي هو رذيلة عند المتعاملين وإنما وُضعَت العفة فضيلة لأجل اللذات الرديئة التي تجني الخيانات الفظيعة على النفْس والبَدَن وكذلك الشجاعةُ

وُضعت فضيلة من أجل الأمور الهائلة التى يجب أن يُقْدم الإنسانُ عليها في بعض الأوقات ولا يَهْرُب منها، وعلى هذا جميع الأخلاق المرضية التى وصفناها وحَضَضْنا على اقتنائها، وأيضا فإن جميع هذه الفضائل تحتاج إلى أسباب خارجة من الأموال واكتسابها من وُجوهها ليُمْكنهَ أن يفعل بها فعل الأحْرار، والعادل يحتاج إلى مثل ذلك ليُجازِى من عاشرَه بجميل ويكافئ مَن عامله بإحسانٍ وجميعُها لا تقوم إلا بالأبدان والأنفسُ وما هو خارجٌ عنها على حسب تقسيمنا السعادات فيما مضى، وكلما كانت الحاجات كثيرةً احتيج إلى الموادّ الخارجة عنا أكثر فهذه حالة السعادات الإنسانية التى لا تتم لنا إلا بالأفعال البدنية والأحوال المدنية وبالأعْوان الصالحين والأصدقاء المخلصين وهى كما تراها كثيرة والتَّعَب بها عظيم ومَن قصر فيها قَصَّرَتْ به السعادة الخاصة به ولذلك صار الكَسَل ومَحَبّة الراحة من أعظم الرذائل لأنهما يَحُولانِ بين المرء وبين جميع الخيرات والفضائل، ويَسْلُخان الإنسان من الإنسانية، ولذلك ذمَمْنا بعض المُتوسِّمين بالزُهْد إذا تَفَرّدوا عن الناس وسَكَنوا الجبالَ والمفازات واختاروا التَّوَحش الذي هو ضد المدينة؛ لأنهم ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية التى عددناها كلها وكيف يعِفّ ويَعْدل ويَسْخُو ويَشْجُع مَن فارق الناسَ وتَفَرّد عنهم وعَدِم الفضائلَ الخُلُقيَّة. وهل هو إلا بمنزلة الجَماد والميت. وأما مَحَبّة الحكمة والانْصراف إلى التَّصَور العقلى واستعمال الآراء الإلهية فإنها خاصة بالجزء الإلهى من الناس وليس يَعْرض لها شيء من الآفات التى تَعْرض للمَحَبّات الأُخَر الخُلُقيَّةِ وضُروب الفساد، ولذلك قُلْنا إنها لا تَقْبل النميمية ولا نَوْعا من أنواع الشرور لأنها الخيْر المَحْض وسَبَبهُا الخير الأول الذي لا تشوبه مادة ولا تَلْحَقُه الشرور التي في المادة، وما دام الإنسان يستعمل الأخلاق والفضائل الإنسانية فإنها تَعُوقه عن هذا الخير الأول وهذه السعادة الإلهية ولكن ليس يتم له إلا بتلك ومن أضَلّ تلك الفضائل بنفسه ثم اشتغل عنها بالفضيلة الإلهية فقد اشتغل بذاته حقا ونجا من مُجاهَدات الطبيعة وآلامها، ومن مجاهدات النفس وقُواها، وصار مع الأرواح الطيبة واختلَطَ بالملائكة المقربين، فإذا انتَقل من وجوده الأول إلى وجوده الثاني حصل في النعيم الأبدى والسرور السرمدى.

الأصفهاني

هو: عبدالمؤمن بن هبة الله، شرف الدين الأصفهاني، ويعرف بشقروه: أديب من الكتاب، صنف "أطباق الذهب في المواعظ والخطب على نسق أطواق الزمخشري".

راجع ترجمته في:

كشف الظنون (١١٦)، وفؤاد سركيس (١٣٠٠).

خُلِقتَ عَلَى الفِطْرَةِ فَلا تُلوِّثها

يا مَن يَتَقَلَّبُ في أَوْدِيَةِ الغَفَلات، تَقَلُّب الرِّيشَةِ في الفلاة، أَيُقْنِعُكَ مِنَ الدُّنْيَا طَعْمٌ تَهْضِمُه[(1)]، ومِن الإسْلام شيءٌ تَقْضُمُه[(2)]، وتَرْضَى[(3)] من العُمْرِ بحُطَام تُطْمَعُه وطَعَام تَطْعَمُه[(4)]، إنْ كُنْتَ تَرْضَاه[(5)] أيُّها النَّائِمُ النَّاسِي، فَاقْعُدْ فإنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي[(6)]، لا وَاللهِ لا لِهَذَا فُطِرْتَ[(7)]، وَلا بهَذَا[(8)] أُمِرْتَ، إنَّ اللهَ طَبَعَكَ ذَهَبًا طَرِيًّا فَلا تَعُودَنَّ زَيْفًا[(9)]، وَخَلَقَكَ بَشَرًا سَوِيًّا فَلا تَصِيرَنَّ طَيْفًا، وَجَلاكَ وَاضِحَ الْغُرَّة فَلا يُسَوِّدَنَّكَ[(10)] هَوَاكَ، وَوُلِدْتَ عَلَى الفِطْرَةِ[(11)] فَلا يُهَوِّدَنَّكَ أَبَوَاكَ، وَيْلُكَ وُلِدْتَ حَنِيفِيًّا فَتَمَجَّسْتَ[(12)]، وأُنْزِلْتَ طَهُورًا فَتَنَجَّسْتَ، وَقَدِمْتَ قُدْسِيًّا فَتَلَوَّثْتَ[(13)]، وَخَرَجْتَ سَيَّاحًا فَتَلَبَّثْتَ، وَنَسَجْتَ

---

(1) في (و): تخصمه.

(2) القطم: القطع بمقدم الأسنان.

(3) في (و): أترضى.

(4) في (و): "بطعام تطعمه وحطّام تطعمه".

(5) في (أ،هـ): ترضى ذلك.

(6) فاقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي: مثل يضرب لمن لا فائدة فيه ولا خير ترتجى منه.

(7) فطرت: خلقت.

(8) في (أ، هـ، و): بذيك.

(9) زيفًا: مغشوشًا.

(10) يسودنك (هكذا): أي يجعلك هواك سيدًا وتغتر بنفسك، وقد يكون ضبطها يَسُودَنَّكَ: أي يقودنك هواك ويكون عليك سيدًا.

(11) الفطرة: المراد فطرة الإسلام: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه". رواه الطبراني (1/261،262) وغيره.

(12) فتمجست: صرت مجوسًا.

(13) في (و، هـ): فتنجست، وفتلوثت، يقصد تلوثت فطرتك بالباطل.

ديباجًا[1] فَصِرْتَ مِسْحًا، وَهَبَطْتَ عَذْبًا فَعُدْتَ مِلْحًا؛ إِنَّ اللهَ خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَلا تَنْحَرِفْ[2]، وَنَوَّرَكَ فَصَفَّاكَ[3] فَلا تَنْكَسِفْ، مَا خَلَقَكَ لَعِبًا، وَلا وَعَدَكَ كَذِبًا، أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَوَفَّى كُلَّ حَيٍّ حَقَّهُ، فَقُلْ لِمَنْ يَشْتَرِي الضَّلالَةَ بِالْهُدَى ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

---

(١) ديباجًا: الديباج ثوب الحرير وهو ناعم، فصرت مسحًا، المسح ثوب الشعر وهو خشن.

(٢) في (أ، و، هـ): "إنك عدلك وسواك"، وفي (أ): "فسواك فلا تنحرف".

(٣) في (أ، و): وصفّاك.

الهمذاني

المقامة المضيرية

حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالبصرة، ومعي أبو الفتح الإسكندري، رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت إلينا مِضَيرة[1] تثنى على الحضارة، وترجرج في الغضارة[2]، وتؤذن بالسلامة، ونشهد لمعاوية -رحمة الله- بالإمامة، في قصعة يزل عنها الطرف، ويموج فيها الظرف، فلما أخذت من الخُوان[3] مكانها ومن القلوب أوطانها، قام أبو الفتوح الإسكندري يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، ويثبها، وطابخها وظنناه يمزح، فإذا الأمر بالضد، وإذا المزاح عين الجد، وتنحى عن الخوان، وترك مساعدة الإخوان، ورفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتحلبت لها الأفواه وَتَلَمَّظَتَ لها الشفاه، واتقدت الأكباد، ومضى في إثرها الفؤاد، ولكنا ساعدناه على هجرها، وسألناه عن أمرها. فقال: قصتي معها أطول من مصيبتي فيها، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت وإضاعة الوقت، قلنا هات.

قال: دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد، ولزمني ملازمة الغريم، والكلب لأصحاب الرقيم[4]، إلى أن أجبته إليها وقمنا، فجعل طول الطريق يثني على زوجته، ويفديها بمهجته، ويصف حذقها في صنعتها، وتأنقها في طبخها. ويقول: يا مولاى، لو رأيتها، والخرقة في وسطها، وهى تدور في الدار، من التنور إلى القدور، ومن القدور إلى التنور، تنفث بفيها النار، وتدق بيديها الأبزار. ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل، وأثر في ذلك الخد الصقيل، لرأيت منظراً تحار فيه العيون. وأنا أعشقها لأنها تعشقني. ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته، وأن يسعد بظعينته، ولا سيما إذا

---

(١) المضيرة لحم يطبخ بلبن.

(٢) الغضارة: لفظة من أصل فارسي تعني القصعة الكبيرة.

(٣) الخوان: المائدة.

(٤) أصحاب الرقيم: أهل الكهف. وكلبهم مشهور.

كانت من طينته. وهى ابنة عمي لحاً[1] . طينتها طيني، ومدينتها مدينتي، وعمومتها عمومتي، وأُرُمَّتُهَا[2] أرومتي. لكنها أوسع مني خلقاً وأحسن خلقا. وصدعني بصفات زوجته، حتى انتهينا إلى محلته، ثم قال: يا مولاى، ترى هذه المحلة، هى أشرف محال بغداد يتنافس الأخيار في نزولها، ويتغاير الكبار في حلولها. ثم لا يسكنها غير التجار. وإنما المرء بالجار. وداري في السطة[3] من قلادتها، والنقطة من دائرتها. كم تقدر يا مولاى أنفق على كل دار منها؟ قله تخمينا، إن لم تعرفه يقيناً. قلت: الكثير: فقال: يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط تقول الكثير فقط! وتنفس الصعداء، وقال سبحان من يعلم الأشياء.

وانتهينا إلى باب داره، فقال: هذه داري كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة؟ أنفقت والله عليها فوق الطاقة، ووراء الفاقة كيف ترى صنعتها وشكلها؟ أرأيت بالله مثلها! انظر إلى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها[4] فكأنما خط بالبركار . وانظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب. اتخذه من كم؟ قل: ومن أين أعلم. هو ساج[5] من قطعة واحدة لا مأروض[6] ولا عفن. إذا حرك أنَّ، وإذا أنقر طن. من اتخذه يا سيدى؟ اتخذه أبو إسحاق وابن محمد البصري، وهو والله، رجل نظيف الأثواب، بصير بصنعة الأبواب، خفيف اليد في العمل، لله در ذلك الرجل! بحياتي لا استعنت إلا به على مثله.

وهذه الحلقة تراها؟ اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير مُعِزِّيَّةٍ وكم فيها يا سيدى من الشبه؟ فيها ستة أرطال، وهى تدور بلولب في الباب. بالله دورها، ثم انقرها وأبصرها، وبحياتي عليك لا اشتريت الحلق إلا منه، فليس يبيع إلا الأعلاق[7] .

---

(١) أى لاصقة النسب.

(٢) الأرومة : الأصل.

(٣) السطة : الوسط.

(٤) عرج البناء: ميله.

(٥) الساج: شجر عظيم صلب الخشب.

(٦) الذي أكلته الأرضة.

(٧) الأشياء النفيسة.

ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال: عمرك الله يا دار، ولا خربك يا جدار، فما أمتن حيطانك وأوثق بنيانك، وأقوى أساسك! تأمل بالله معارجها وتبين دواخلها وخوارجها، وسلني: كيف حصلتها، وكم من حيلة احتلتها، حتى عقدتها، كان لي جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن. مات رحمه الله وخلف خلفا أتلفه بين الخمر والزمر ومزقه بين النرد والقمار وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار إلى بيع الدار فيبيعها في أثناء الضجر، أو يجعلها عرضة للخطر ثم أراها وقد فاتني شراها فأتقطع عليها حسرات، إلى يوم الممات. فعمدت إلى أثواب لا تنض[1] تجارتها، فحملتها إليه وعرضتها عليه، وساومته على أن يشتريها نَسِيَّةً[2] والمدبر[3] يحسب النسية عطية، والمتخلف يعقدها هدية، وسألته وثيقة بأصل المال. ففعل وعقدها لي: ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله تزق فأتيته فاقتضيته. واستمهلني فأنظرته. والتمس غيرها من الثياب فأحضرته. وسألته أن يجعل داره رهينة لدى. ووثيقة في يدي ففعل. ثم دَرَّجْتُهُ بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجد صاعد. وبخت مساعد، وقوة ساعد ورب ساع لقاعد. وأنا بحمد الله محدود، في مثل هذه الأحوال محمود، وحسبك يا مولاي، أني كنت منذ ليال نائما في البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب، فقلت: من الطارق المنتاب فإذا امرأة معها عقد لآل، في جلدة ماء ورقة آل، تعرضه للبيع فأخذته منها أخذة خلس، واشتريته بثمن بخس، وسيكون له نفع ظاهر، وربح وافر، بعون الله ودولتك. وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة. والسعادة تنبط الماء من الحجارة، الله أكبر! لا ينبئك أصدق من نفسك، ولا أقرب من أمسك، اشتريت هذا الحصير في المناداة، وقد أخرج من دور آل الفرات، وقت المصادرات وزمن العارت. وكنت طلبت مثله منذ الزمن الأطول، فلا أجد. والدهر حبلى ليس يدرى

---

(١) كاسدة : غير نافعة.

(٢) النسية: البيع بثمن مؤجل.

(٣) المدبر: الذي ضاقت حاله.

ما يلد. ثم اتفق أني حضرت باب الطاق وهذا يعرض في الأسواق. فوزنت فيه كذا وكذا دينارا. تأمل بالله دقته ولينه، وصنعته ولونه، فهو عظيم القدر. لا يقع مثله إلا في النـــدر. وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري؛ فهو عمله، وله ابن يخلفـــه الآن في حانوتـــه لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده. فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه، فالمؤمن نـــاصح لإخوانه لاسيما من تحرم بخوانه.

ونعود إلى حديث المضيرة. فقد حان وقت الظهيرة، يا غلام، الطست والماء، فقلت الله أكبر ربما قرب الفرج، وسهل المخرج. وتقدم الغلام، فقال ترى هذا الغلام؟ إنه رومـــي الأصل عراقي النشء. تقدم يا غلام وأحسر عن رأسك، وشمر عن ساقك، وانض[1] عـــن ذراعك، وافتر عن أسنانك، وأقبل وأدبر، ففعل الغلام ذلك وقال التاجر: بالله من اشتراه؟ اشتراه والله أبو العباس. من النخاس. ضع الطست، وهات الإبريق! فوضعه الغلام وأخـذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر، ثم نقره، فقال: انظر إلى هذا الشبه[2] كأنه جذوة اللهب، أو قطعة من الذهب، شبه الشام، وصنعة العراق، ليس من خلقان الأعلاق[3] ، قد عرف دور الملوك ودارها. تأمل حسنه وسلني: متى اشتريته! اشتريته والله عام المجاعة، وادخرته لهـــذه الساعة. يا غلام، الإبريق، فقدمه وأخذه التاجر فقلبه، ثم قال: وأنبوبه منه لا يصلح هـــذا الإبريق إلا لهذا الطست ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست. ولا يحســـن هـــذا الدست إلا في هذا البيت. ولا يحمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف.

أرسل الماء يا غلام، فقد حان وقت الطعام، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه، أزرق كعين السنور، وصاف كقضيب البلور، أستقي من الفرات واستعمل بعد البيات، فجاء كلسلان الشمعة، في صفاء الدمعة، وليس الشأن في السقاء[4] ، الشأن في الإناء، لا يدلك علـــى نظافة أسبابه، أصدق من نظافة شرابه. وهذا المنديل! سلني عن قصته. فهو نسج جرجان،

---

(١) نض الثوب عنه: نزعه وخلعه.

(٢) الشبه: النحاس الأصفر والبرونز.

(٣) خلقان الأعلاق: ما يسلى منها.

(٤) السقاء: وعاء من جلد للماء وغيره.

وعمل أرجان، وقع إلي، فاشرتيته، فاتخذت امرأتي بعضه سراويلا، واتخذت بعضه منديلا: دخل في سراويلها عشرون ذراعاً وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعاً وأسلمته إلى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه. ثم رددته من السوق وخزنته في الصندوق، وادخرته للظراف من الأضياف، لم تذله عرب العامة بأيديها، ولا النساء لمآقيها، فلكل علق يوم، ولكل آلة قوم.

يا غلام الخوان، فقد طال الزمان، والقصاع، فقد طال المصاع[1] ، والطعام، فقد كثر الكلام. فأتي الغلام بالخوان، وقلبه التاجر على المكان ونقره بالبنان، وعجمه[2] بالأسنان، وقال: عمر الله بغداد، فما أجود متاعها، وأظرف صناعها!.

تأمل بالله هذا الخوان وانظر إلى عرض متنه[3] ، وخفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله، فقلت: هذا الشكل، فمتى الأكل!؟ فقال: الآن عجل يا غلام الطعام. لكن الخوان قوائمه منه.

قال أبو الفتح: فجاشت نفسي وقلت: لقد بقي الخبز وآلاته، والخبز وصفاته، والحنطة من أين اشتريت أصلا، وكيف اكترى لها حملاً، وفي أى رحى طحن، وإجانة[4] عجن، وأي تنور سجر[5] ، وخباز استأجر. وبقي الحطب من أين احتطب، ومتى حلب وكيف صفف حتى جفف، وحبس حتى يبس. وبقي الخباز ووصفه، والتلميذ ونعته، والدقيق ومدحه، والخمير وشرحه، والملح وملاحته، وبقيت السكرجات من اتخذها، وكيف انتقاها، ومن عملها والخل كيف انتقى عنبه، أو اشترى رطبه، وكيف صهرجت معصرته واستخلص لبه. وكيف حبه وكم يساوى دنه وبقى البقل كيف احتيل له حتى قطف وفي

---

(١) المصاع: المنازعة.

(٢) عجمه: عضه ليعلم صلابته من رخاوته.

(٣) متنه: أى ما ظهر منه.

(٤) الإجانة: ما يعجن فيه من الآنية.

(٥) سجر التنور: ملأه وقوداً وأحماه.

أى مبقلة رصف، وكيف توءنق حتى نظف، وبقيت وأحجبت نارها ودقت أبزازها، حتى أجيد طبخها وعقد مرقها، وهذا خطب يطم وأمر لا يتم.

فقمت، فقال: أين تريد؟ فقلت: حاجة أقضيها، فقال: يا مولاى تريد كنيفًا يـــزري بربيعي الأمير وخريفي الوزير. قد جصص أعلاه وصهرج أسفله وسطح سقفه وفرشـــت بالمرمر أرضه، يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ويمشي على أرضه الذباب فيزلق، عليه باب، غير أنه من خليطي ساج وعاج، مزدوجين أحسن ازدواج، يتمني الضيف أن يأكل فيـــه، فقلت: كل أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف في الحساب.

وخرجت نحو الباب، وأسرعت في الذهاب، وجعلت أعدو، وهو يتبعني ويصيح: يا أبا الفتح المضيرة. وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجـــر، من فرط الضجر، فلقي رجل الحجر بعمامته فغاص في هامته. فأخذت من النعال بما قـــدم وحدث، ومن الصفع بما طاب وخبث، وحشرت إلى الحبس، فأقمت عـــامين في ذلـــك النحس فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت. فهل أنا في ذلك يا آل همدان ظالم؟

قال عيس بن هشام: فقبلنا عذره ونذرنا نذره. وقلنا: قديما جنـــت المضـــيرة علـــى الأحرار، وقدمت الأراذل على الأخيار.

أبو القاسم الحريري

هو الرئيس أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري منسوب إلى صناعة الحرير أو بيعه ولد سنة ٤٤٦هـ بالمشان، وهي قرية قرب البصرة ثم رحل إلى البصرة وسكن في محلة بني حرام، وهم قبيلة من العرب سكنوا بالبصرة وتأدب بها وقرأ العربية على أبي الحسن بن فضال المجاشعي شيخ إمام الحرمين والفقه على أبي إسحاق الشيرازي وعين صاحب الخبر بالبصرة، وهو منصب ظل به إلى أن مات فتوارثه أولاده من بعده وظل فيهم إلى عهد العماد الأصبهاني وتوفي ٥١٦هـ.

المقامة الحلوانية

حكى الحارث بن همام قال: كلفت مذ ميطت عنى التمائم. ونيطت بى العمائم بـــأن أغشى معان الأدب، وأنضى إليه ركاب الطلب، لأعلق منه بما يكون لي زينة بين الأنـــام. ومزنة عند الأوام. وكنت لفرط اللهج باقتباسه، والطمع في تقمص لباسه. أباحث كل من جل وقل، واستسقى الوبل والطل. وأتعلل بعسى ولعل.

فلما حللت حلوان، وقد بلوت الإخوان. وسبرت الأوزان. وخبرت ما شان وزانـــه، ألفيت بها أبا زيد السروجي يتقلب في قوالب الانتساب، ويخبط في أساليب الاكتســـاب فيدعى تارة أنه من آل ساسان ويعتزى مرة إلى أقيال غسان. ويـــبرز طـــورا في أشـــعار الشعراء، ويلبس حينا كبر الكبراء.

بيد أنه مع تلون حاله، وتبين محاله، يتحلى برواء ورواية، ومداراة ودرايـــة. وبلاغـــة رائعة، وبديهة مطاوعة، وآداب بارعة، وقدم لأعلام العلوم فارعة، فكان لمحاسن آلاتـــه، يلبس على علاته، ولسعة روايته، يصبي إلى رؤيته، ولخلابة عارضيه، يرغب عن معارضته، ولعذوبة إيراده، يسعف بمراده، فتعلقت بأهدابه. لخصائص آدابه، ونافست في مصافاتـــه، لنفائس صفاته.

فكنت به أجلو همومي واجتلى زماني طلق الوجه منتمع الضيا
أرى قربه قربي ومغنـــــاه غنيـــة ورؤيتـــــه ريـــــا ومحياه لي حـــيا

ولبثنا على ذلك برهة، ينشئ لى كل يوم نزهة، ويدرأ عن قلبي شبهة، إلى أن جدحـــت له يد الإملاق كأس الفراق، وأغراه عدم العراق بتطليق العراق، ولفظته معاوز الإرفاق إلى مفاوز الآفاق، ونظمه في سلك الرفاق خفوق راية الإخفاق، فشحذ للرحلة غرار عزمتـــه، وظعن يقتاد القلب بأزمته.

فمـــا راقني من لاقنى بعد بعده ولا شاقنى من ساقني لوصاله
ولا راح لي مذ ند لفضـــلـــه ولا ذو خلال حاز مثل خلاله
واستسر على حينا، لا أعرف له عرينا ، ولا أجد عنه مبينا.

فلما أبت من غربتي، إلى منبت شعبتي، حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين، وملتقى القاطنين منهم والمتغربين، فدخل ذو لحية كثة، وهيئة رثة. فسلم على الجلاس، وجلس في أخريات الناس.

ثم أخذ بيدي ما في وطابه، ويعجب الحاضرين بفصل خطابه. فقال لمن يليه: ما الكتاب الذي تنظر فيه؟ فقال: درى أن أبي عبادة، المشهور له بالإجادة.

فقال: هل عثرت له فيما لمحته، على بديع استملحته؟قال نعم، قوله:

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح

فإنه أبدع في التشبيه، المودع فيه فقال له: يا للعجب، ولضيعه الأدب! لقد استسمنت ذا ورم، ونفخت في غير ضرم! أين أنت من البيت الندر. الجامع مشبهات الثغر، وأنشد:

نفسي الفداء لثغر راق مبسمه وزانه شنب ناهيك من شنب

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن أقاح وعن طلع وعن حبب

فاستجاده من حضر واستحلاه، واستعاده منه واستملاه، وسئل لمن هذا البيت. وهل قائله حي أو ميت؟ فقال: أيم الله، للحق أحق أن يتبع، وللصدق حقيق بأن يستمع إنه يا قوم، لنجيكم منذ اليوم. قال: فكأن الجماعة ارتابت بعزوته، وأبت تصديق دعوته. فتوجس ما هجس في أفكارهم، وفطن لما بطن من استنكارهم، وحاذر أن يفرط إليه ذم، أو يلحقه وهم، فقرأ:

[إن بعض الظن إثم] ثم قال: يا رواة القريض، وأساة القول المريض، إن خلاصة الجوهر تظهر بالسبك، ويد الحق تصدع رداء الشك، وقد قيل فيما غبر من الزمان: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وها أنا قد عرضت خيبتي للاختبار، وعرضت حقيقتي على الاعتبار.

فابتدر أحد من حضر، وقال: أعرف بيتا لم ينسج على منواله، ولا سمحت قريحة بمثاله، فإن آثرت اختلاب القلوب، فانظم على هذا الأسلوب:

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقـــت وردا وعضت على العناب بالبرد

فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب، حتى أنشد فأغرب:

سألتها حين زارت نضو برقعها الـــ قاني وإيداع سمعي أطيب الخـــبر

فزحزحت شفقا غشى سنا قمـــــر وساقطت لؤلؤا من خاتم عطـــــر

فحار الحاضرون لبداهته، واعترفوا بتراهته. فلما أنس استئناسهم بكلامه، وانصباقم إلى شعب إكرامه، أطرق كطرفة العين، ثم قال:

ودونكم بيتين آخرين، وأنشد:

وأقبلت يوم جد البين في حلل سود تعض بنان النادم الحصر

فلاح ليل على صبح أقلهمـــــا غصن وضرست البلور بالدرر

فحينئذ استسنى القوم قيمته، واستغزروا ديمته، وأجملوا عشرته، وجملوا قشرته. قـــال المخبر بهذه الحكاية: فلما رأيت تلهب جذوته، وتألف جلوته، أمعنت النظر في توسمـــه، وسرحت الطرف في ميسمه، فإذا هو شيخنا السروجي، وقد أقمر ليله الدجوجي، فهنأت نفسي بموردة، وابتدرت استلام يده، وقلت له: ما الذي أحال صفتك، حـــين جـــهلت معرفتك، وأى شيء شيب لحيتك، حتى أنكرت حليتك!

فأنشأ يقول:

وقع الشوائب شيب والدهر بالناس قلب

إن دان يوما لشخص ففى غد يتغـــلـــب

فلا تثـــق بوميـــض من برقه فهو خلب

واصبر إذا هو أضرى بك الخطوب وألب

فما على التـــبر عـــار في النار حين يقلب

- ثم نهض مفارقاً موضعه، ومستصحبا القلوب معه.

وحى الرسالة لأحمد حسن الزيات

الجزء الأول

سعد باشا زغلول (٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٥)

كان سعد رحمه الله كالبحر لا تطالعه من أى جهاته إلا غمر نفسك بجلال العظيم، وشغل رأسك بخيال الشاعر، وأخذ حسك بروعة المجهول، ولم يكن إنسانا كسائر الناس عظمته موضع الشذوذ في بشريته، وعبقريته بعض الكمال في نقصه، وقوته عرض منتقل في ضعفه؛ إنما كانت العظمة أصلا في طبعه، والعبقرية فطرة في خلقه، والقوة جوهرا في إرادته. وإذا كان النبوغ قوة في ملكة على حساب ملكات، وارتفاعا في جهة بانخفاض جهات، فإن نبوغ سعد باشا كان نظاما عدلا في نوعه، ظهر في كل موهبة من مواهبه بمقدار واحد، وبهر في كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز. فهو في صرامة المنطق مله في لطافة الشعر، وفي جرأة القلب مثله في رقة الشعور، وفي بلاغة اللسان مثله في براعة الذهن، وفي كيد الخصومة نفسه في شرف الرجولة، وفي قيادة الجمعية التشريعية عينه في قيادة الأمة المصرية.

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآية الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصة، والحجة القائمة على فضل الثقافة الصحيحة. نشأ كلاهما قرويين لم يشب دماءهما عنصر دخيل، أزهريين لم يشل تفكيرهما تقليد عاجز، ثم مضيا على إلهام الجنس ورسم التاريخ وهدى العقيدة، يدعو أحدهما إلى إصلاح الدين ويدعو الآخر إلى إصلاح الدنيا، برجولة الخلق وفحولة التفكير وبطولة التضحية، حتى كان من أثر جهادهما المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجدان وثورة الحمية.

كانت معجزة الرجلين في رسالتهما الإنسانية من نوع معجزة الرسول في رسالته الإلهية:

رجولة قاهرة، وفصاحة ساحرة، وخلق عظيم، وتلك هى عناصر الشخصية الجبارة التى تأمرك وكأنها تستشيرك، وتقودك وكأنها تتابعك، وتتضامن إليك وأنت منها كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة.

إذا شئت أن تختصر رسالة سعد في كلمة فهى (الدفاع عن الحق). تطاوع له منذ شب بدفاع من غريزته الحاكمة وطبيعته النافذة، فكان في كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة وسلطان الهوى وعدوان الرذيلة. عين بعد خروجه من الأزهر محررا في الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام. فكان يكتب في الاستبداد والشورى والأخلاق، وينتقد الأحكام التى كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة). ثم عين ناظرا لقلم قضايا الجيزة وكان حكمه حكم القاضي الجزئي. فنزل الحق من عدله وعقله في حمى أمين. ثم أصغى لصرخة الحق في القضية العرابية ففصل من وظيفته. فزاول المحاماة وهى يومئذ حيلة الباطل وخصيمة العدل وآفة الخلق، فأنقذها من هذه الراغة، وطهرها من ذلك الرجس، وردها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم تساعد القانون وتؤيد الحق. وكان سعد أفندى زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر، فجعل دستور هذه الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذي أجاب به ممتحنة وقد سأله عن واجبات المحامي فقال:

"درس القضية والدفاع عن الحق، واحترام القضاء"

ثم اختير نائب قاضي في محكمة الاستئناف، ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق، فبرع لقضاة الأوربيين بالذهن الغواص، والدرس المحيط، والتوجيه النزيه والاستدلال الصحيح، والاستنباط الدقيق، والحكم الموفق.

ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف، وكان للمستشار الإنجليزي دنلوب فيها استبداد الطاغية وفساد المستعمر، وعناد القدر، وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والكرامة المصرية فطأطأ سعد بسطوة الحق علو المستشار. وأعز جانب العربية في وطنها فجعلها لغة الثقافة، ووضع الأقدار في موضعها فرفع بذلك من قدر الكفاية!

ثم انتخبته الأمة نائبا عنها في "الجمعية التشريعية" فكان بشخصيته الغلابة ولهجته الخلابة وحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومتجه الأفئدة، وكان منهجه فيها قوله المأثور:

"الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة"

ثم أعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين في (فرساى) فدوى في سمعه صوت الحق الصريع، وعصفت في رأسه نخوة الشعب المستذل، فنهض للغاصب المزهو نهضته المعروفة، فخيس بها أنف الجبار العنيد، وفتح بفصلها الدامي تاريخ مصر الجديد.

وهكذا اصطفى الله سعدا لرسالة الحق في أمة سفهته في نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه، ثم ركبه على الصورة التي أرادها لتبليغ هذه الرسالة، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق السلامة، وجعل الذين اتبعوه بالحق فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

كانت رسالة سعد كما رأيت (الدفاع عن الحق) في عهد خذل فانتهى فيه الحكم إلى الأثرة، وشعب جهل الحق فجرى به الأمر على الباطل. وكانت عدة هذا المدرة لذلك الدفاع البلاغة والمنطق والقانون: فالبلاغة للجمهور، والمنطق للخصوم، والقانون للحكومة، ولست أرمي بذلك إلى تقسيم كلام سعد إلى التأثير المحض والإقناع المطلق والتطبيق المجرد، فإن خطبته في كل موضع وفي كل موضع وفي أى موضوع وفي أى موضوع لا تخلو من هذه العناصر الثلاثة؛ وإنما يظهر بعضها على بعض حين يقتضى المقام ذلك الظهور، فهو يوجه التأثير بالفكرة إلى الذهن إذا هاجم الإنكار والجهل ، ويوجهه بالعاطفة إلى النفس إذا عالج الخمود والغفلة، ثم يوجهه بالنصوص إلى الذاكرة إذا عارض القوة والسلطة. و لم ير التاريخ المصرى بل الشرقي قبل سعد خطيبا بليل اللسان، ندى الصوت طلق البديهة، دامغ الحجة، حافل الخاطر، رائع البيان، أنيق اللهجة، حسن السمت يزاوج بين المنطق والشعر، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع، ويراوح بين الجد والهزل، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب، والفيلسوف بدقة الفكر، والموسيقي بجمال الإيقاع، كل أولئك في هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة، تساعد بلاغة

اللسان والعين واليد بشعاع إلهي باهر ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتضع، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع، وإلى القلوب القاسية فتنماع.

كان سعد رجل جلاد وجلد. تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل. وراضى نفسه منذ الدراسة على أدبي اللسان والقلم، وتنفس به العمر في ميادين الجهاد في الحق فتكلمت عبقريته الموهوبة بالمعرفة وتثقلت بالتجربة، وتقوت بالمرانة، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يهضب[1] بالكلام أربع ساعات متواليات لا يتلكأ ولا يتكثر باللغو، ولا يستعين بالتكرار، ولا يطرد نشاط السامع، وكأنما كانت الخطابة لطول ما زاولها تصدر عنه كما يصدر الفعل عن الملازم والعادة المستحكمة فالفكر عميق من غير إعنات، والأسلوب رشيق من غير تكلف، واللفظ متخير من غير قصد، والمعاني متساوية تختلف باختلاف العقول والميول والحال، فتقع من قلوب سامعيها العشرين ألفا موقع الأنداء من جفاف الأرض هذا بالصورة الأخاذة. وذاك بالفكرة الناقدة، وذلك بالحجة الوثيقة، وأولئك جميعا بالبيان المهم والأداء العجيب!

أكثر ما في خطب الخطباء حنجرة وإلقاء وحركة. فإذا قرأت بعد ذلك ما سمعت تبينت فيه الكلام الزائف والرأى المجازف والأسلوب المهوش. أما سعد فتسمعه وتقرأه فلا تجد بين الحالين إلا الفرق بين الخطيب الماثل بشخصه. والكاتب الماثل بروحه. ذلك بروحه. ذلك لأنه يخطب كما يكتب، ويكتب كما يخطب. متوخيا في الأمرين براعة التفكير وبلاغة الداء وجمال الأخيلة وصحة الأقيسة وقوة الأدلة!.

كان سعد برد الله ثراه وخلد ذكراه يحب الكلام كما يحب العمل، وينشط بالجلاد كما ينشط بالجدل، ويطرب للفتة الذهن كما يطرب لقهر الخصوم، ويقدس المنطق حتى ليأخذ به من نفسه لعدوه، ويقوى بالكفاح حتى ليركبه المرض والوهن إذا ما استجم.

---

(١) يقال فلان يهضب بالشعر أو بالخطب: يسمح بهما سمحاً.

دخلت ذات يوم (بيت الأمة)[1] في وفد من قومي نجدد الثقة بالرئيس حين أصدع من حوله الوفد، وائتمرت به الحكومة، وتخشن عليه الإنجليز، ودس له المراءون الغدر في الملق، ولم يبق معه إلا اعتداده بنفسه واعتقاده بحقه، وثقة الشعب الأعزل به، وكان في ذلك اليوم عليلا لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد، ولكن الوفد المسافر المشوق يأبى في إلحاح وإصرار إلا أن يرى رئيسه وإن لم ينزل، ويسمعه رأيه وإن لم يتكلم. فنزل الزعيم النبيل مدثرا بلفائف المرض يتحامل على نفسه ويتهالك على مقعده. وكان فناء الدار وشارع الدار وحجرات الدار قد انفجرت انفجار عرفات بالدعاء والتفدية حين لاح وجهه الشاحب من العلة.

قد وفدنا إلى الرئيس عرائض الثقة في غلاف حريري جميل. ثم تعاقب الخطب على الأسماع ما بين سمين وهزيل، والخطيب المعجز جالس إلى مكتبه يصغى إلى كل خطيب ويصق لكل خطبة، حتى انتهى القوم ووقف هو يقول كلمة الشكر. فبدأها بصوت خافت متهافت، ثم ما لبث أن شبا وجهه واستقام عوده وارتفع صوته وتنوعت لجهته بالنبرات المؤثرة، وتحركت يده بالإشارات المبينة، ثم تدفق السيل الهادر ساعة كاملة هتك فيها أستار الغلول والخديعة عن سياسة الحكومة والخصوم. فما سمع الناس كاليوم خطيبا ينطق عن الوحى، وأسلوبا يتسامى للإعجاز، وصوتا يمتزج رنينه الفضى بأجزاء النفس خطبة لا يظفر بمثلها البيانيون نموذجا كاملا للفن.

تلك صورة جانبية لناحية من نواحى فن الزعيم جلوناها على قدر هذه الصفحة ولعلنا نعود يوما إلى هذا الإجمال فنفصله، وإلى هذا التراكيب فنحلله.

---

(١) لقب أطلق على بيت سعد الخاص.

المنفلوطي

هو: مصطفى لطفي بن محمد بن لطفي بن محمد حسن لطفي المنفلوطي نابغة في الإنشاء والأدب انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه، وله شعر جيد فيه رقة وعذوبة، ولد بمنفلوط من أسرة حسينية النسب مشهورة بالتقوى والعلم، تعلم في الأزهر واتصل بالشيخ محمد عبده وسجن بسببه ستة أشهر لقصيدة قالها تعريضًا بالخديوي عباس حلمي له من الأعمال "النظرات"، و"العبرات"، و"في سبيل التاج"، و"الشاعر"، و"مجدولين" و"مختارات المنفلوطي".

راجع ترجمته في: النظرات (٩/٣١)، والكتر الثمين (٢٦٨)، مشاهير شعراء العصر (١/٣٢٠)، والثغر الباسم في مناقب أبي القاسم (٢٩)، ومعجم المطبوعات (١٨٠٥)، وجامع التصانيف الحديثة (٢/١٣).

رسالة الحجاب

بداية:

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئا، فلبث فيها بضع سنين، ثم عاد وما بقى مما كنا نعرفه منه شيء.

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة.

وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض، وساكنها والنقمة على السماء وخالقها.

وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا تـــرى شيئا فوقها، ولا تلقى نظرة واحدة على ما تحتها.

وذهب برأس مملوءة حكما ورأيا، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد.

وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما.

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفـــاء مـــن الفتيـــان العائدين من تلك الديار إلي أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغا لا تلبـث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة، إذا انحرفت عنها زال خياله منها فلم أشـــأ أن أفارق ذلك الصديق، ولابسته على علاته وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر محتملا في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره، ما لا طاقة لمثلي باحتمـــلل مثله، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب، فكانت آخر عهدي به.

٢–تغير

دخلت عليه فرأيته واجما مكتئبا فحييته، فأومأ إلي بالتحية إيماء، فسألته : ما باله؟

فقال: ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ولا أدري مصير أمري فيه.

قلت: وأي امرأة تريد؟

قال: تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي.

قلت: إنك كثير الآمال يا سيدي، فعن أي آمالك تحدث؟

قال: ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقعا على وجه امرأة في هذا البلد.

قلت: ذلك ما لا تملكه ولا أرى لك فيه.

قال : إن كثيرا من الناس يرون في الحجاب رأيي، ويتمنون في أمره ما أتمنى، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال بجالسنهم كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي[1] القديم الذي وقف سدا دون سعادة الأمة وارتفاعها دهرا طويلا، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام، وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنما لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياء منهن وخجلا، ولا خجل هناك ولا حياء، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هُؤلياء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة، فلا بد لي أن أبغ أمنيتي، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجرة علاجا ينتهي بإحدى الحسنيين: إما بكسره أو بشفائه!!

---

(١) العادي القديم : نسبة إلى قبيلة عاد وهما بالمعنى نفسه.

٣-مقابلة

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي هما وحزنا، ونظرت إليه نظرة الراحم الراثي وقلت: أعالم أنت أيها الصديق ما تقول؟

قال : نعم ، أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها ؛ واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعا حيث وقعت.

قلت: هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوما من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه.

قال : ربما وقع لي شيء من ذلك، فماذا تريد.

قلت: أريد أن أقول لك إني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك!.

قال: إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع.

فتداخلني ما لم أملك معه وقلت له :

تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فتنحدر منها إلى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم، فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها، والنفس الإنسانية كالغدر الراكد لا يزال صافيا رائقا حتى يسقط فيه حجر، فإذا هو مستنقع كدر، والعفة لون من ألوان النفس، لا جوهر من جواهرها، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة.

قال: أتنكر وجود العفة بين الناس؟

قلت: لا أنكرها، لأني أعلم أنها موجودة بين القلة الضعفاء والمتكلفين، ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب، والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب، وخلا وجه كل منهما لصاحبه.

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم؟!

أفي جو المتعلمين وفيهم من سئل مرة : لم لم يتزوج؟

فأجاب: نساء البلد جميعا نسائي!

أم في جو الطلبة وفيهم من يتواري عن أعين خلانه وأترابه خجلا إن خلت محفظته يوما من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو أقفرت من رسائل الحب والغرام؟.

أم في جو الرعاع والغوغاء ، وكثير منهم يدخل البيت خادما ذليلا، ويخرج منه صهرا كريما ؟

وبعد:

فما هذا الولع بقصة المرأة، والتمطق[1]، بحديثها، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز.

أبواب الفخر أمامكم كثيرة، فاطرقوا أيها شئتم، ودعوا هذا الباب موصدا، فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلا عظيما وشقاء طويلا.

٤ – عفة

أروني رجلا واحدا منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها، فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه.

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها، وما أحسبكم إلا خاسرين!

ما شكت المرأة إليكم ظلما، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من

---

(١) تمطق: صوت بلسانه عند استطابة الطعام.

أسرها، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها؟ .

إنما لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلا إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها، فأوصدت من دونها بابها، وأسبلت أستارها، تبرما بكم وفرارا من فضولكم فوا عجبا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها ! ..

إنكم لا ترثون لها ، بل ترثون لأنفسكم، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجا وسفورا، ويتدفق خلاعة واستهتارا، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلفتموه هناك.

لقد كنا وكانت العفة في سقاء[1]، من الحجاب موكوء[2]، فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقبا والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض، وتكرش ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة.

٥-وسوسة

عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها، راضية عن نفسها وعن عيشها، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها، ونزولها عند رضاهما، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب.

---

(١) السقاء وعاء الماء من جلد السلخة.

(٢) أوكي القبة: شد رأسها بالوكاء، والوكاء :الرباط.

فقلتم لها : إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلا ولا أفضل رأيا، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك، فازدرت أباها، وتمردت على زوجها، وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرسا من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها، ولا يخبو أوراها.

وقلتم لها : لابد لك أن تختاري زوجك بنفسك،حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك، فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة، ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم.

وقلتم لها: إن الحب أساس الزواج، فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعُنيت به عنه!

وقلتم لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق، فأصبحت تطلب في كل يوم زوجا جديدا يحيي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم ، فلا قديما استبقت ولا جديدا أفادت.

وقلتم لها، لابد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك، والقيام على شؤون بيتك، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها، والقيام على شؤون بيتها.

وقلتم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا وشعورها شعورنا، فرأت أن لابد لها أن تعرف مواقع أهوائكم،ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة، فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات والضاحكات اللاعبات ، والإعجاب بهن، والثناء علي ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم، وتنزل عند محبتكم، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضا، كما تعرض الأمة نفسها في سوق الرقيق، فأعرضتم عنها ونبوتم بها ، وقلتم لها: إنا لا نتزوج النساء العاهرات، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعا ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباها الخليع، وترفع عنها المحتشم، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت !!

٦- إصلاح

وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعا وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالا مترهبين ونساء عانسات!

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها!

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم -فليهذبها أبوها أو أخوها، فالتهذيب أنفع لها من العلم- وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجعل الأزواج عشرة نسائهم، وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة، فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفا عليها من الذئاب ، فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج، بذلك، فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها ، فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها.

٧- تقليد

أعجب ما أعجب له في شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئا واحدا هو أدنى إلى مداركم أن تعلموه قبل كل شيء ، وهو أن لكل تربة نباتا ينبت فيها، ولكل نبات زمنا ينمو فيه !

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها، فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء!

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها، فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء إن كان هناك ما يغني عنه !

ورأيتم الرجل الأوروبي حرا مطلقا يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها، فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلا ضعيف الإرادة والعزيمة ،

يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها.

ورأيتم الزوج الأوربي الذي أطفأت البيئة غيرته وأزالت خشونة نفسه وحرشتها ؛ يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء ، وتصاحب من تشاء، وتخلو بمن تشاء، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم الرجل الشرقي الغيور المتلهب أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه.

ورأيتم المرأة الأوربية الجريئة المتفتّية في كثير من مواقفها مع الرجال أن تحتفظ بنفسها وكرامتها فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها وتحتفظ بنفسها احتفاظها !

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه، أو في ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه، وإما أن ينشب فيها فيفسدها.

إنا نضرع إليكم باسم (الله ، واضعين أمامكم) الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلا ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين.

٨-انفتاح

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية، وقال: تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها.

فقلت له : لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء، وائذن لي أن أقول لك: إني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ! لأني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلني حياء وخجلا.

ثم انصرفت، وكان هذا فراق ما بيني وبينه.

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانا أهتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله، وأن بيته أصبح مغشيا لا تزال النعال خافقة ببابه، فذرفت عيني دمعة لا أعلم: هل هي دمعة الغيرة على العرض المذال، أو الحزن على الصديق المفقود؟

٩- جريمة

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها، ولا يزورني ،ولا ألقاه في طريقه إلا قليلا فأحييه تحية الغريب للغريب، من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر، ثم أنطلق في سبيلي.

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجا من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمني أمره، ودنوت منه ، فسألته عن شأنه؟ فقال:

لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سببا، وما أنا بالرجل المذنب ، ولا المريب، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا ، علني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون ؟

قلت : لا أحب إلى من ذلك.

ومشيت معه صامتا لا أحدثه، ولا يقول لي شيئا، ثم شعرت كأنه يزور، في نفسه كلاما يريد أن يفضي به فيمنعه الخجل والحياء، ففاتحته الحديث ، وقلت له:

ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سببا ؟

فنظر إلى نظرة حائرة، وقال : إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث: فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة، وما كان ذلك شأنها من قبل.

قلت: أما كان يصحبها أحد ؟

قال : لا .

قلت: ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟

قال : لا .

قلت: ومم تخاف عليها ؟

قال : لا أخاف شيئا سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء، فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه، فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة.

وكنا قد وصلنا إلى المخفر، فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور، فوقفنا بين يديه، فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها، ثم استدنى الفتى إليه وقال له : يسوؤني أن أقول لك يا سيدي: إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة، في حال غير صالحة ، فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها، فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكراما لك، وإبقاء على شرفك، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما.

وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته، وإذا الرجل أحد أصدقائه!! فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر ، وملأت نوافذه وأبوابه عيونا وآذانا، ثم سقط في مكانه مغشيا عليه، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها، ففعل ، وأطلق سبيل صاحبها.

ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ، ودعونا له الطبيب ، فقرر إنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبث ساهرا بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح، فانصرف على أن يعود متى دعوناه، وعهد إلي بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله، وأنتظر قضاء الله فيه، حتى رأيته يتحرك في مضجعه، ثم فتح عينيه فرآني ، فلبث شاخصا إلى هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئا فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له :

هل من حاجة يا سيدي؟

فأجاب بصوت ضعيف خافت: حاجتي أن لا يدخل على من الناس أحد.

قلت: لن يدخل عليك إلا من تريد.

فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع.

فقلت: ما بكاؤك يا سيدي ؟

قال : أتعلم أين زوجتي الآن؟

قلت : وماذا تريد منها؟

قال: لا شيء سوى أن أقول لها : إني قد عفوت عنها.

قلت: إنها في بيت أبيها.

قال : وا رحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها، فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجادا، فألبستهم مذ عرفوني ثوبا من العار لا تبلوه الأيام .

من لي بمن يبلغهم عني جميعا أنني مريض مشرف وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا زلتي، قبل أن يسبق إلي أجلي؟

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها ، أن أصون عرضها صيانتي لحياتي ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي ، فحنثت في يميني ! فهل يغفر لي ذنبي، فيغفر لي الله بغفرانه ؟

نعم إنها قتلتني ! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي !

البيت بيتي، والزوجة زوجتي ، والصديق صديقي ، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلي زوجتي ، فلم يذنب إلى أحد سواي.

١٠-يقظة

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء قد جبينه شيئا فشيئا ، حتى لبست وجهه ، فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه، ثم أنشأ يقول:

آه ما أشد الظلام أمام عيني! وما أضيق الدنيا في وجهي ! في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان فتملأ نفسي غبطة وسرورا، وأحمد الله على أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعا: إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ، ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها.

وا لهفا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين[1].

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مـــررت بهـــم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض، أو يحدقون إلى ويطيلون النظر في وجـــهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله، والغباوة في وجوه الأغبياء...!

ولعل الذين كانوا يتوددون إلى ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي؟

ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم قوادا ويسمون زوجتي مومسا ، وبيتي مـــاخورا[2]، وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم.!

فوا رحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة، ووا لهفا على زاويـــة منفردة في قبر موحش يطويني ويطوي عاري معي !

ثم أغمض عينيه، وعاد إلى ذهوله واستغراقه.

١١- شك

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده، تحمله على يدها، حتى وضعته بجـــانب فراشـــه، ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه ، فـــأحس بـــه، ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهـــه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستشرّ بشَرَه، ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح:

أبعدوه عني ، لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء، سلوا أمه عن أبيه من هو؟

واذهبوا به إليه ! لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثرا خالدا ورائي بعد مماتي . وكـــانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ، فسمع صوته وهو يبتعـــد عنه شيئا فشيئا فأنصت إليه واستعبر باكيا وصاح:

أرجعوه إلى ،فعادت به المرضع ، فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول:

---

(١) ليتني لم ألد.

(٢) الماخور : بيت الريبة.

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتم، وما خلفت لك أمك من العار ، فاغفر لهما ذنبهما إليك، فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن في جريمته التي اجترمها، فأساء من حيث أراد الإحسان.

سواء أكنت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر، فلا أنسى يدك عندي حيا أو ميتا !

ثم احتضنه إليه ، وقبله في جبينه قبلة لا أعلم: هل هي قبلة الأب الرحيم ، أو المحسن الكريم ؟

١٢- موت

وكان قد بلغ منه الجهد، فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه، وما زال يثقل شيئا فشيئا حتى خفت عليه التلف، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ، ثم استردها مملوءة يأسا وحزنا.

ثم بدأ يترع نزعا شديدا وئين أنينا مؤلما فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها.

فإنا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريره وإذا امرأة مؤتزرة بإزار أسود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها وأخذت تقول له:

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك، فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها، فاعف عني يا والد ولدي واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك.

ثم انفجرت باكية.

ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باسمة، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى !

١٣- ختام

... الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي بيدي ، وأودعت حفرة القبر ذلك

الشاب الناضر، والروض الزاهر وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي، فلا يهون وجدي عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده، فاقتحمه، فمات وحيدا .. فنجت بهلاكه[1]!!!

(١) رسالة الحجاب للمنفلوطي من ص ٨/٣٥.

الرافعي

هو: مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد بن أحمد عبدالقادر الرافعي عالم أدب شاعر من كبار الكتاب أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم "بمترل والد أمه" ووفاته بطنطا، أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به شعره نقي الديباجة ونثره من الطراز الأول له ديوان شعر مطبوع ثلاثة أجزاء "تاريخ آداب العرب" و"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" و"تحت راية القرآن" و"رسائل الأحزان" و"على السفود" و"وحي القلم" و"السحاب الأحمر في فلسفة الحب والجمال" و"حديث القمر" و"المعركة" و"المساكين" و "أوراق الورد".

راجع ترجمته في:

المنتخب من آداب العرب (٥٥/١)، ومحمود بسيوني في مجلة الرابطة العربية ١٨ ربيع الأول ١٣٥٧هـ، والمقتطف (٣٥٢/٧٣)، وتراجم علماء طرابلس (٢١١)، ومعجم المطبوعات (٩٢٦).

قال "الشيخ علي" : وإني محدثك الآن حديثاً يشفي نفسك من الخبر، ويفتح عليك أبواباً من العبرة والموعظة ويحضرك طرفاً من الدنيا بأقداره وعلله ومذاهب حكمة الله فيه كأنما أنت شاهد أمره ؛ فلتعلمن أن في المال مشغلة عما سوى المال، وأن الحرص عليه حتى الحرص لا يداخل أمراً من أمور الحياة فيعترض بين ورده وصدره إلا ساء أحدهما أو كلاهما وفسد الأمر فعسى أن يتصل بما هو أجل منه خطراً وأنسى مترلة، فلا يكون ذلك الحرص إلا مضيعة، ولا تكون الرغبة فيما يستخلف إلا سبباً في ذهاب ما لا يستخلف.

ولتعلمن أن المال شيء غير الحياة، وأن الحياة شيء غير المال، وأن ما يخدع الإنسان فيتلون له من سراب هذه السعادة إنما يكون أكثر ما هو كائن من بريق المال يحسبه شيئاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ؛ وعسى أن لا يكون فيما أقبل من نعيم الدنيا إلا ما يدبر بصاحبها، وأن لا تصيب فيما روي عنك من حظها إلا ما يقبل بحظ نفسك على نفسك.

ثم لتعلمن أنه إن كانت للقدر فترة عن رجل من الناس فقيراً أو غنياً أو بين ذلك، فما هي غفلة ولا معجزة ؛ ولعل الرجل إنما يمد له في الغي مدًّا طويلاً حتى إذا جاء يومه انفجر عليه بما لا يطيق له سدًّا ولا يستطيع له ردًّا، وأنه رب كلمة تعارف الناس معناها وأجروها على مذهبها في كلامهم فإذا هي نزلت بعض منازلها من الحياة كان لها معنى آخر لا تفسره إلا الحياة نفسها، ثم لا تفسره إلا على ضد مأخذهم ومقصدهم ؛ فيقول الناس "فلان الأمير" ومعنى ذلك فيما نراه من حوادث الحياة وأقدارها فلان النذل ؛ ويقولون "هذا الغني" ومذهب الحياة أنه الشقي بغناه ؛ وفلان أعزه الله وإنما هي أخزاه الله بعزه ؛ ويحسدون فلاناً إذ يرون أن الله عز وجل قد مكن له وآتاه من بسطة المال والجاه فهو يستعد للحياة بأفضل عدتها ثم تقع الواقعة ويتغشى فلاناً هذا ما شاء من الحوادث والأقدار فإذا هو إنما كان يستعد للموت بأقبح عدته !..

ولتعلمن كذلك أن الغاية من هذه الحياة كمال الحي في جسمه ونفسه، فإن تم بالفقر

فذلك غناه، وإن نقص بالغنى فذلك فقره، ولا شأن لاصطلاح الناس فيما هو خاص بين المرء وذات نفسه ؛ وهذا معنى بسطته لك آنفاً ولكني متلقيك بمثاله من رجل وامرأة، ولا عليك أن لا تسمع حديثاً عن الباشا "وهانم" أو أبي زيد وأم الخير، ولا على أن أجيئك بالمثالين على باخرة أجعل ذلك من صرف الكلام وتزيينه وما بلادنا من هذه المخازي بمنتزخ، ولكني أردت إمتاعك من لذة الحديث على مدار إمتاعك من حكمة الحادثة ؛ والكلام عن رذائل الحياة في بلادنا هذه كلام غي يتجافى عن الرقة في أكثر مناحيه، وإذا وجهته إلى أكثر قومك فإنما أنت تشتمهم به أو هم يتلقونه من هذه الجهة، ولا منلص أن تقع بك ظنة الشباب وإن كنت واعظاً، ويقال عاق وإن كنت براً، وغاش وإن كنت من الناصحين.

الرجل البخيل

أما فلان هذا فهرم بخيل لو مسخ حجراً لتحطمت من غيظها الأحجار، ولو كان على بخله حديداً لما لان الحديد في النار، ولو صوره الله طيناً أجوف لما طن في يد أحد على نقر، ولو خلقه مرة أخرى من تراب لما جمع هذا "التراب" إلا من ثياب أهل الفقر..

وهو نبي أمة البخل ؛ أما معجزته فهي قدرته على أن يستنبط غير المألوف من المألوف، ويستغل الصفر فيخرج منه ألفاً إلى ألوف وإنه على ذلك لآية، فما رآه المؤمنون إلا قالوا : اللهم غفراً، ولا رآه الجاحدون إلا زادوا عتوًّا وكفراً.

وكم تمنى وهو يتهالك حرصاً أن يكون كإبليس في أنه لا يموت إلا متى هرم الدهر، ولا يذهب من الأرض إلا حين لا يبقى في تاريخ الأرض ولا شهر، وإذا خوفته الموت والحساب قال : ويلك دع عنك وإذا علم أنه سيعطى كتاب أعماله في الآخرة قال : يا ليت صحفه من "ورق البنك" !

على أن درهمه في أيدي الناس هم واسمه في أفواههم سم، وكم لأمواله من قتيل فمن (استلف) ؛ فقد ذهب به التلف ؛ ومن اقترض ؛ لقد انقرض ! وكم من بائس قشعت بيده إن دراهم هذا الخبيث لتعد من اللصوص، وإنما للئيمة على العموم أما هو فلئيم على الخصوص ؛ يرسل الدرهم في يد المحتاج فيذهب فيه دينار، ويقدح فكره الملتهب فلا تقع

إلا في بيوت الفقراء ناره، ولو كان مخلوقاً يوم عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، لحمل وحده الأمانة ؛ وإذا كان مبلغ القول في وصف كل غني كريم أنه "صراف" في خزانة الله فجهد القول في هذا اللئيم أنه لص الخزانة !

وهو على غناه كأنه في الناس بؤس المفلس في القمار. وكأنه لحقارته ذيل الحمار ؛ إن طلع عليهم فطالع زحل، وإن غاب عنهم فوباء رحل، ومتى ذكروه، فكأنهم نكروه، وإذا قضي عليهم أن يسموه فكأنما شتموه. وإذا وصفوه قالوا وجع الأظفار، وذنب بلا استغفار، اللهم قنا عذاب النار !

أما وجهه فلو أنزل الله مرآة من السماء فنظر فيها لصدئت من قبح خياله، كصدإ ذلك المخزون من ماله، وأما روعته فلو خرج على الحسان لابتلاهن بما يفجأ الظباء من رؤية الفهد، وامتلكهن بما يعتري المرضع إذا كشفت عن طفلها فأبصرت الثعبان في المهد ؛ وأما جهامته فلو نظر إليه البدر لغرب، ولو طلع عليه الفجر لهرب، أما روحه الخفيفة.. فلو بعثت خلقاً آخر لما كانت إلا بقة صيف، في رقبة ضيف، أو بعوضة تلسع العاشق المهجور فتوقظه وقد ظفر بالطيف، وحياته كالبلاء المحتوم، وغناه كالكنز المختوم، وأما هو فكالقبر الكتوم.

وأحسب لو رسمه أمهر المصورين بأبدع خططه وألوانه، وأنطقه من عينه وعنوانه، وجعله آية فنه وافتنانه، وترك من يراه لا يحسب إلا أن المصور قد سرقه، أو أن الله تعالى مسخه على ورقة لبقي مع ذلك في رسمه مغمز لا تصلحه إلا يد الشيطان الرجيم ! ولا تلونه إلا شعلة من نار الجحيم.. ومن للمصور بشرارتين من الصاعقة يترلهما في الرسم لتظهر بهما عيناه، ومن له برقبتي البخل والرذيلة يطبق عليهما يسراه ويمناه، ومن له بلونين من غضب الله ونقمته يظهر بهما في الصور معنى فقره وغناه ؟

ولست أطيل في القول، فما أنا ببالغ من القول بعض صفاته وهيهات أن يصفه على الحقيقة إلا من يعلم لغة الملائكة فينقل إلى لغة الناس كتاب سيئاته..

قال "الشيخ علي" : ذلكم هو " الكونت فيكتور" رجل أملق أموال الناس وزادها في ماله، وجمع بين سوء حمل الغنى وسوء حمل الجاه، وعرف النعمة ونسي المنعم بها، فكأنما

فتح الله عليه من هذه الدنيا ومكن له في أبوابها وأفشى جاهه ونعمته على ما ابتلاه بـــه في خاصة نفسه من المحق، ليجعله واحداً من أولئك الذين يخرج للناس من تواريخهم قصصاً في الأخلاق محكمة السبك في نسق التأليف الإلهي المعجز الذي يأتي بالحادثة في موضعها حية وميتة، ويترل الكلمة في مستقرها من الموعظة ولو أن فيها ذهاب نفس وإدبار نعمة، ويدبر المثل والفلك بأسلوب واحد.

وقد أسند هذا الرجل في حدود السبعين وكادت تحطمه السن، ولا يزال متـــأبداً، ولم يستر سقف بيته امرأة ؛ ولا ضحكت الشمس فيه على وجنة طفل يبتسم. وقد نشأ علـــى أن حب المال لا يستقيم إلا ببغض النساء، لأنه أكثر ما يجمع لهن وأكثر ما ينفق عليـــهن، ولا يرى المرأة إلا إنها "ثورة مالية"، و"سوق في البيت" و"أزمة يحتال الرجل للخلاص منها بالوقوع فيها".. ويقول إنما منذ أكلت من الشجرة المعلونة في السماء جعلـــت الرجـــل شجرتها الملعونة في الأرض، فهو عاش ينبت وينمو وهي ما عاشت تحصد وتأكل.. وقـــال مرة : إن الرجل لا يزال عقلاً حتى يتزوج، فإذا هو فعل فقد صار مـــن زوجـــه وأولاده سلسلة بطون.. قيل له : ولم لا يكون يومئذ من زوجته وأولاده سلسلة عقول ؟ قـــال : إلى أن يصبح أطفاله القدماء رجالاً يكون هو قد صار طفلهم القديم !..

وجاءه يومًا سمسار يساومه في أرض له وجعل يراوغه ويترقى إلى خديعتـــه بمـــا أوتي السماسرة من خبث ودهاء، ويقبل به مرة ويدبر به مرة، والكونت في كل ذلك يعبـــث وينمي له، ثم صرفه على طمع كاليأس، فلما ذهب مدبراً قال : ويحـــي ! لـــو أن هـــذا السمسار كان امرأة جميلة إذن لأدارني في يده كما يرقص الدينار على الظفر، فـــالحمد لله إذ خلق النساء على نظام رحيم فجعل في هذا الشر المحتوم موضعاً للهرب..

ولما بلغ الخمسين – بعافية من الله – قال : أحسبني لو كنت متزوجاً يوماً فإن امـــرأتي في هذه الساعة تلتقم ثدي أمها.. فسأنتظر حتى تصلح لي ! فأجابه بعضهم : وحتى تصلح لها أيضاً..

وتواصفوا عند الجمال مرة وأفاضوا في حديث النساء والنعمة بهن وقد تعالم الناس ذلك البغض منه – فلما أضجروه قال : حسبكم يا قوم، ما أراكم إلا تخلقون إفكاً إن هـــذه

المرأة في حقيقتها غير تلك المرأة في وهم الرجل ؛ فهي هي حتى يبعث عليها وهمه ويصبغها بألوان نفسه وتستضيء به فكأنما منه أمام الفانوس السحري !.. إن المرأة خصم عنيد لا يقتل بالغضب ولكن يقتل بالضحك، وشر ما فيها إن لم يكن منها قتل فليس معها حياة.

تقولون عن الرجل محتاج إلى المرأة ! فقد كان ذلك أيام كانت المراة كأنما في عملها للرجل رجل آخر.. فتلك حاجة اليد إلى اليد، وحاجة الظهير إلى الظهير، ولهي مناقلة طبيعية في الجنسين بين قوة تحتاج إلى ضعف يخفف من سورتها، وبين ضعف يحتاج إلى قوة تشد منه ؛ فلو كان العالم كله رجالاً ؛ إذن لطالت أنيابهم كثيراً ولما وجد على الأرض من يخترع مقصاً للأظافر.

أنا لست أنكر أن المرأة شيء طبيعي، وما هي بهولة من الهول ولا مسخ من المسوخ، ولا أنا آسف على خروج آدم من الجنة بذنبها، فإني رجل اقتصادي، ولقد كان من هذا الذنب رأس مال كبير، فإياكم وإياي، لا تظنوا أني أكابر أو أماري، ولا تحسبوني جلفاً يكره الجمال ويريد أن يكون للمرأة بديلاً من رأسها النحيف المكلل برأس جاموسة.. وبدلاً من يدها الرخصة الناعمة ظلف بقرة.. حسبكم يا قوم ـ حسبكم الله – لا أطيق هذا العبث بي، ولكني أسمعكم تقولون المرأة وتصفون المرأة ولا أرى المرأة نفسها كما تحدثون وتصفون، بل أرى مخلوقة غريبة الأطوار في هذه المدنية، وأرى خرقاء إن لم يكن معها الإفلاس فلا أقل من أن يكون معها الندم أو الغيظ أو السخط، وربما كانت بلاء ماحقاً يزف إلى الرجل يوم زواجه باحتفال.. يخيل إليها من الفكر في المال أن الرجل هو مال أيضاً وتريد أن تتزوج، ولماذا ؟ لأن المحراث لا يلتمع نصله إلا بعد أن يجدوا له الثور..

امرأة متأنقة لا تريد أن تطلع الشمس كل يوم على زي جميل ليكون لزوجها كل يوم هم جميل، ثم هي أحسن ما تكون حين تخرج من بيتها كأن بيتها منخل لا يمسك منها إلا الحثالة!

إننا يا قوم تلقاء المرأة لا تلقاء معجزة من معجزات الأنبياء، فنحن نستطيع أن نقول

هذا خطأ فيها وهذا صواب منها، ولكنها على أي أحوالها لا تريد أن تكون معها أبداً إلا على حالة واحدة ؛ تريد أن تشبه نفسها، لأنها لا ترى أكمل من نفسها ؛ أما الرجل فهو إذا رأى فيها نقصاً فذلك عندها لأن عينه عين رجل تكاد أهدابها تكون من شعر اللحى والشوارب.. فمن ههنا لا يرى الخبيث تلك الحسنات النسائية التي تترقرق من المرأة في كل شيء صافية جميلة كنور القمر.

ترى هذه المرأة أن كل حسن في أعمالها لا يكون إلا أحسن شيء لأنها حسناء ؛ ولكنها لا تقر أبداً أن كل قبيح في أعمالها ينبغي أن يكون أقبح شيء، ولماذا ؟ لأنها حسناء أيضاً!

هذه المرأة الجميلة قد ظنت عند نفسها أنها شيء مقدس، ولذلك لا تريد أن تعمل عملاً، كبقرة البراهمة، فيا ليت الرجل، كان شيئاً مقدساً أيضاً كعجل المصريين القدماء!.. ولكن البقرة المقدسة في المرأة لا تعرف العجل المقدس في الرجل!..

يا هؤلاء، إنما الرجل مخلوق قوي، ولكن معظم قوته منصرف إلى حواسه، فمن ثم كان في يد المرأة ضعيفاً، لأنها على ضعفها ينصرف ما فيها من القوة إلى عواطفها، فلا يلتقي الخصمان إلا كانت الهزيمة على الرجل، وقد كان لولا سفاه رأيه في منظر عن هذا ومستمع، فما رأيت قط رجلاً يهوى امرأة إلا أعتد سلطانه في أنه يشعر بسلطانها عليه، وكان رضاه في أنها راضية عنه ؛ فهكذا هكذا.

جعل الرجل حاجته الكبرى في المرأة، وبالغ في توهم هذه الحاجة، وافتن في تصويرها ألواناً وضروباً، فجعلت المرأة حاجته إليها سبب كل حاجة لها، وبالغت في الطلب، واحتكمت فيما تطلب، وانصاع الرجل في يدها كالبهيمة السائمة، وجعله التمدن الفاسد في رأيها كآلة الساعة : علامة ضبطها وإتقانها "إن لا تقدم ولا تؤخر" !.. وإن تعجب فاعجب أن هذا الرجل نفسه إذا هو كبحها مرة عن حاجة تطلبها، أرضاها بحاجة أخرى لم تطلبها، فكأن هذا المسكين إذا تعبد لها يأبى إلا أن يكون عبداً بشهود وأدلة.. وتحسب المرأة اليوم أنها غير المرأة من قبل ؛ وغير ما كانت حالها، كأنها رقي في التاريخ، فقد غيرت نفسها بالفنون والعلوم والأزياء، وبهذا التحكم الباطل وبهذه الدعوى الفارغة، وأنا

أول المؤمنين أنها غيرت نفسها ولكن هل غيرتهما الطبيعة ؟

أيها السادة إن كلمة "هات" وكلمة "خذ" لولا كلتاهما لخربت الدنيا وتقاصرت الأمور والأحوال، وكل عمل وكل عامل يتركب منهما. فالدنيا كلمتان : "هات، وخذ"، والحياة كلمتان :"هات وخذ" ؛ والمرأة التي تصفونها كلمتان أيضاً : "هات، وهات"..

قال "الشيخ علي" :ومر هذا الكونت في فلسفته يمضغها مضغ الماء وربما أصاب شيئاً، ولكن ماذا تنفع كلمة الحق يراد بها الباطل ؟ وهذا رجل يتكلم كأنه ابن شجرة لا ابن امرأة..! على أن من تعلق شيئاً من أمور الحياة وكل إليه ؛ وهو بعد لم يعرف غير المال يجمعه ويدخره، وقد خلقه الله رجلا ماليا ويسره لما خلق له ؛ وكثيراً ما رأى وجهه في المرأة فكان يعجبه من منخريه أنهما في تفرطحهما "كحافري حصان الجنيه الإنجليزي"!..

ولما استوفى عمر السبعين وأصبح في يبسه وموته كأنه جذر قرن من الزمن، خرج في عيد مولده إلى سواد المدينة منحدراً إلى قرية يملكها، وانطلق يجتلي مناظر الطبيعة، فكان لا يرى في السائمة والطير والنبات والأزهار إلا شباباً وطفولة، وكان وحده منظر الهرم المستميت في هذه الطبيعة كلها، وأعجبته شجرة قائمة على مسيل الماء، وأعجبه أن يتفيأ ظلها وقد تحفى بروحه المتعبة بردها ونسيمها، فانطرح يتثاءب هنيهة وأحب أن يسافر إلى شبابه البعيد على مطية النور، فكبس رأسه على ذراعه فإذا هو نائم كأنما جرع السم فخمده من فوره..

ورأى فيما يرى النائم كأن الأرض ترقصه على أعشابها لتمسح عن أعضائه التعب، ثم أبصر السماء في مثل تحاسين الطاووس من ألوانها وأصباغها كأنما أشرق على الأرض فجر يوم من أيام الجنة، ثم نظر فإذا ضوء رطب يتندى وقد ترقرق فأصاب شفتيه الذابلتين، ولمح على إثره وجه حسناء كأنها فلقة القمر، فكان ذلك الضوء قبلتها وابتسامتها، وكان على قلبه "برداً وسلاماً" فنصب لها يديه يتناولها فإذا هي أمامه ضاحكة، وإذا هي ملء صدره وذراعيه، فارتجف جسمه رجفة شديدة كان فيها شوق سبعين سنة من الهجر، وما لبثت عقدة أجفانه أن انحلت فنظر فإذا يد فتاة قروية ناعمة تهزه برفق !..

فانتهض الكونت كأنما نشط من عقال ولما تصح عيناه من سكرة الحلم فكان يخيل إليه أنه يرى جمال السماء والأرض معاً في طلعة هذه الفتاة وعلى غرتها، ثم كشف لها عن رأس كفروة الأرنب البيضاء، وانحنى متأدباً وقال بلطف : أشكرك يا سيدتي !

أما هي فابتسمت له وقام في نفسها أنها هر ردت عليه روحه ؛ وأنها لو لم تنبهه لما انتبه آخر الدهر، كأنما حسبته ميتاً وظهر هذا الفكر في ابتسامتها فأكسبها شيئاً من قوة روحها، وجعل لشفتيها الحمراوين جمالاً كجمال الشفق إذا أفتر عن نور الفجر.

وتأملها الرجل بمبلغ ما في نفسه من لذة الحكم وما في صدره من ضجعة تلك الحورية التي تلوت عليه وتقلبت فيه "وبعث عليها وهمه وصبغها بألوان نفسه واستضاءت به، فكأنها منه أمام الفانوس السحري !.."وما خلق الله لذة أهنأ للنفس من لذة الأحلام، فكأنما ترى فيها النفس شيئاً من تحقيق المستحيل، وإن في أعقاب هذه اللذة بعد اليقظة مما يشعر المرء بالأماني كيف جاءت وكيف ذهبت، كأنما كان في حياة أخرى، وكأن نفسه تتمسك بهذه الحياة ولا تريد أن تسلمها، فتكون ذكرى الحلم أروح للنفس من الحلم على الحقيقة، لأنها نتاج ما بين لذة لم تكن شيئاً صارت شيئاً.

وثبتت صورة الفتاة في عينه على ما اشتهى، وكانت زهراء اللون، حوراء العينين، ساجية الطرف، أسيلة الخد، باسمة الثغر، حسنة التكوين كأنها ريحانة ترف رفيقاً، وتكاد من فرط رقتها تتكلم ابتساماً حتى لا يحسب من رآها أن الشمس طلعت يوماً على أبدع من ثغرها واللؤلؤ، ولا أحسن من خدها والورد، وكأن الطبيعة يعتريها أحياناً من سوء الحرص وسوء الخوف وسوء الحيلة بعض ما يعتري الشحيح الذي يخبئ أنفس ذخائره في أحسن الأمكنة وأقبحها منظراً وفيما لا حفل به من الأداة والمتاع. فكانت "لويز" على ما وصفنا من الجمال والظرف ولم تكن مع ذلك إلا قروية !

أما صاحبها فما أشبهه بعنق النسر : شيخ مضعوف، كالعرق المتروف والعظم الملفوف؛ ممسوح العضدين، ناسل الفخذين، كأنما يتوكأ منها على عضوين.. غير أن له عيناً يتوقد فصها ويستنفض الناس طرفها فلا يملك من تقع عليه أن يضطرب ؛ وكذلك اضطربت الفتاة، وما كاد الرجل يلمح اضطرابها حتى طبع الله على بصيرته فحسب ذلك

معنى من الغزل، وانطلق وراء خياله يمر به على آمال الشباب الفانية، وكان لحظ الفتاة ينساب فروى عروقه دماً يغلي ؛ فحسب أن جسمه قد ثاب إليه، وأنه بعث خلقاً جديداً لهذا الحب الجديد.

..ويبالغ في التظرف ويجلس قريباً منها يستنبئها وهي تطرف له من أخبارها ؛ فعلم من روايتها أنها شريفة النسب خالصة العرق، وقد نبا بها المنزل وانحط الدهر على أهلها فهي ذاهبة إلى المدينة تلتمس حياة التقوى في دير العابدات.. وعلمت هي من رؤيته أن هذا الموت الماثل أمامها حياة، وأنه لا مذهب لها من ورائه إذا هي أفلتته إلا مذهب القدر المجهول ؛ ورأته كأنما يتشرب لفظها ولا يسمعه، وأبصرت هواها في حماليق عينيه، فجعلت حيناً تبسم له وتلحظه وحيناً تلحظه وتبسم له، وما تلفظ من أنه في بث حزنها إلا أحس المسكين أنها نقرة على أوتار قلبه، ولعل الإنسان لا يمكنه أن يحب إلا إذا هيأت له الطبيعة مجلس الحس على ما يشتهي وعلى ما هو مذهب الحب في نفسه !

وقد مذعت له الفتاة من خبرها، وكتمت عنه أنها طريدة منبوذة اسزلها فتى من عشيرتها على أن يتحللها وكان منها مقعد فؤادها زمناً، ثم طوح بها عاره وغدره ولؤمه جميعاً، فخرجت هائمة على وجهها ولفظها قومها كما تطرح الثمرة إذا دب فيها الفساد من عبث الطير !

قال "الشيخ علي" : وانقلب الاثنان كلاهما صيد وصائد : أما هي فأصابت رجلاً مجنوناً بها يحبها حب الجد والأب والزوج والعشيق، فإن ثاب إليه عقله من جهة بقي مجنوناً من ثلاث جهات ؛ وحسبت أن الموت مصبحه أو ممسيه فهو همها عشية أو ضحاها. ولقد كانت من الضائقة والعوز وشدة الاختلاف بحيث لو عهد إليها أن تغسل الزنجي حتى يبيض لقاء درهمين لطمعت فيهما.. وأما هو فقد ظفر في زعمه بالمرأة الطبيعية التي نبتت مع الأزهار، وطلعت في سماء الحياة مطلع ضوء النهار ؛ وحسب أن هذه الفتاة التي تناهز العشرين إنما هر زيادة عشرين سنة في عمره ينتهبها من القدر انتهاباً ويقضي بها دين الحب طفولة وشباباً. ولست أدري كيف عزب العقل عنه، ولا كيف خذله رأيه، ولا كيف وهى ركن فلسفته وكان من قبل وثيقاً وكيف أحب منذ الساعة وقد كان

يتصاون عن النساء ويحسب أن بغضهن عقد لا يحله إلا من يحل عقدة نفسه !..

ولكن الحب يا بني لا يكون عجيباً بلا شيء يعجب منه، وكثيراً ما يتملأ الرجل بغضاً ليحب بعد ذلك بمقدار ما أبغض، فمثله كمثل من يبحث عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التي لا تؤدي إليه، فمتى أصابه كانت قوة البرهان بطريقة استخراجه العجيبة أشد منها في البرهان نفسه.

وهي الأرواح ما يزال بعضها يتسلط على بعض، وما إن يزال في كل روح معنى هو الوسيلة إلى هذا التسلط ومنه مساغه ومأتاه ؛ فلو قلت إن في مسلاخ ذلك الرجل معنى الحمار لما كان في الفتاة إلا معنى العصا ؛ وكذلك انطلقت وهي تسوقه في طرق مصائبه، وعند العصا تفرغ حيلة الحمار ولو كان الحمار أبياً.

في الحب

من هذه الهيفاء التي تستميل ولا تميل، وقد استبدت بالجمال فلا يرى في غيرها شيء جميل، طالعة كالضحى فكل نجمة من ضوئها كاسفة، لاهية كالنسيم وفي كل قلب من حبها عاصفة، وقد عبدها العشاق باطلاً كما يعبد المجوس الشمس، وتمنوا في دلالها المحال كما يتمني المرء من أمس، وكتب عليهم هواها المحتوم : "جند ما هنالك مهزوم" !

وكم تمنوا لو أن لين أعطافها، يتعدى إلى انعطافها ؛ ولو أن بعض ابتسامها، يشرق على ظلمات اليأس من غرامها ؛ وهي تقتل منهم برضاها وغضبها على السواء، كأن حبها الموت : متى قضي جاء به الداء وجاء به الدواء !

في الحفلات

ومن هذه الطالعة في غلائلها، المعروفة في الحسن بدلائلها ؛ المشرقة كالبدر في ظلمة الحلك، الضاحية كالشمس في قبة الفلك، تعترف بالهوى في ألحاظها، وتنكره في ألفاظها وتقبل بعينها سائلة عما بين جنبيك، وتلتفت بجيدها مائلة هن جواب عينيك ؛ وقد حسرت عن زنديها، ووضعت رمزاً للحب تلك الوردة على نهديها، فلاحت للمحبين كأنها روح القبلات من خديها ؟

في الرقص

ومن هذه الزهراء كالنار المشبوبة، الحسناء كالدمية المنصوبة ؛ المشرفة في زينتها كغرة الدينار، اللائحة في ميناء الدموع كما يلوح المنار ؛ وقد شفت قلبها عن الجوى كما يشف الزجاج، وتدافعت من طرب الهوى كما تتدافع الأمواج ؛ وحتى ترقص على حركات القلوب في الضلوع وتسترسل في سهولة كأنها جسم من الدموع، والأبصار قائمة على قوامها، والنفوس حائمة منها على حمامها، وما هي في عين المحب إلا خطرات الطيف، أو رقة نسمات الصيف، ولا رقصها إلا معركة في الحب قام فيها اللحظ مقام السيف ؟

في الموسيقى

ومن هذه الباسمة كالأزهار، الساجعة كالأطيار، التاركة عشاقها كالشمس بين طرفي الليل والنهار، القائمة كالكأس في اليد، الناعمة كالحمرة في الخد.. وهي تحيي بالصوت لأنه يخرج من صدرها وتسكر باللفظ لأنه يمر من ثغرها ويكاد يخلق من سحر القلب المفتون، ومن حركات أناملها العقل المجنون، إذا صدحت فحمامة ! وإذا رقصت فغمامة، وإذا أرسلت من يدها صيحة الأوتار أقامت للطرب القيامة ؟

تلك هي درة الصدفة المطروحة على ساحل الموت، وهي حمامة ذلك القفص البالي المصنوع من العظام، وهي خطيبة الكونت فيكتور..!

وتلك هي "لويز" القروية الساذجة، كانت نبتة في الطين، فأصبحت زهرة في وعاء ثمين، ولأن تكون نبتة مهملة وتنمو، خير من أن تكون زهرة مرعية وتجف.

ولقد رأى الكونت – أخزاه الله – أن أحسن ما يكون الاستمتاع بالجمال حين يكون الجمال فناً وفتنة، فأما الفتنة ففي عيني لويز وجمال تكوينها، وأما الفن فلا سبيل إليه من هناك ولا من فلسفته، وليس إلا أن يبسط يده كل البسط حتى تنبت له تلك الزهرة من أغصان الذهب والجوهر ؛ فأنفق واتسع في الإنفاق، وجعل آمال شيخوخته كلها مقترحات في زينة الفتاة ؛ فبرعت البراعة كلها في الرقص والموسيقى وأحسنت من الفن النسائي في أساليب الظرف والجمال والزخرف على جسمها، ما ترك هذا الهرم المتصابي المفتون يفاخر الناس كافة بأنها خارجة من قريحته.

وأعجب ما في أمره أنه على كثير ما أنفق وطائل ما بذل، لم يكن يرى أنه أنفق على لويز ما لا بد منه لمثل لويز..؛ وهو منذ أصبحت في كنفه، استبدل من الحرص على المال بالحرص على الحياة، وعرف أنه لا بد في الحب من وسيلة، وأن قلب المرأة ليس في يد أحد ولا في يد المرأة نفسها، بل هو يحتكم فيما يختار، ويختار على ما يحتكم ؛ وأنه ليس أشد عنفاً من هذا القلب، فهو إن لم يحي قتل : يحب المرأة عاشق غير محبوب منها، ويريد مراغمتها على حبه فيقتله قلبها لوعة وضنى بما يطوع لها من صده أو بغضه ؛ وتحب المرأة ثم يمنعها قومها ويرغمونها على غير من تحب، فلا يقتلها إلا قلبها !

وإن فكتور ليعرف أنه فارغ الخلقة.. من وسائل الحب كلها، ويعرف أنه في أحمض أنواع الهوى لا يعدل أكثر مما تعدل قشرة الليمونة المعتصرة، فكيف به في الثمر الحلو، وكيف به في حب لويز !

لم يبق إذن إلا أن "يخرج الوسيلة من يده" والمال أضعف الوسائل في الحب الصحيح وإن كان أقواها في الحب المكذوب، على أنه لا يجعله قويًّا من ضعف إلا أن يظل يمد بعضه بعضاً، فإذا انفضت اليد أو أمسكت فلأن يقبض المحب على الريح أيسر من أن يضع يده على ظبية شاردة..

ومن أجل ذلك توسع الكونت البذل حتى كأنه كيس مخروق. و لم يعرف لها طلباً إلا بلغ فيه رضاها وحسب أن في رضاها محبتها. فكان يأتي بالحاجة التي تطلبها والحاجة التي لم تطلبها، ويجعل كل شيء شيئين، "وأبى إذ تعبد لها إلا أن يكون عبداً بشهود وأدلة".

وبقيت "لويز" تتربص به الأجل، فكانت له كحرف التسويف ؛ ولا تزال تدافعه عن نفسها ؛ وتروضه على الصبر، وتمنيه أنها تستتم فنون الجمال من أجله، وأن هذا القمر متى تم فسيدخل معه في المحاق.. لا محالة. وتظن باطلاً أنه لم يبق منه إلا كما بقي من ذنب الوزغة تضرب به يميناً وشمالاً ثم تموت ؛ بيد أن الموت لم يستنقذها منه، وإن كان يرأف بها أحياناً وتدخله الرقة عليها فينيب عنه الروماتزم ليريحها بضعة أيام !..

وكان الرجل يخشى غضبها ويطمع في رضاها فكان يستعين ببعضه على بعضه، ويعلم أنها ترى الصبر أحسن ما فيه فيترك أقبح ما فيه ويصبر، فلما استوت فتنتها و لم يبق من

باطلها ما تتعلل به أو تمتلق به علة، ورآها قد أخذت زخرفها وازينت واهتزت وربت، صار منها كحرف الجر لا يريد إلا أن يكون الجار والمجرور متعلقين.. وفرغ صبره واستيقن أن له آخرة وأن صاحبته لا تزال في أول دلالها، وكانت تحسب الدهر نائماً عنها فإذا عينه قد انتبهت في أجفان هذا الشيخ فنظر إليها نظرة لا صواب فيها..

وباغتها الرجل فخيرها بين أمرين خيرهما شر : إما طريق إلى صدره وإما طريقة من غدره ؛ ومع الأولى الوصية بالمال، ومع الأخرى أن تذهب في الحال !

وكذلك غلبها على أمرها وانتصر في معركة كان لابد أن يخر فيها أحدهما صريعاً، وقد استحال أن يكون المغلوب غيرها، وإن عثرة تنتهض منها بعد حين خير من عثرة لا تستقليها؛ ورأت الظبية أن لا مناص، فوقعت في يد القناص..

يا ليل

الليل منسدل كأنه حجاب مضروب بين الحياة والأحياء، مجتمع الظلمة، كأنما هي ذنوب الناس في نهارهم جعلت الملائكة ترسلها إلى السماء، وتغشي الأرض معنى من خشية الله فنفرت له دموع المساكين، وأقبلت عليه أنفاس المحزونين، وبرزت له في آثار الظلم دعوات المظلومين، وقد ارتفع إلى الله صوت يتقطع زفرات، ويتلهب حسرات، ويسل من الدمع قطرات ؛ وكان صوت "لويز" وهي تزفر الزفرة تكاد تنشق لها، وترسل الأنة تكاد تدفن فيها ؛ وما بها الغيظ فتسكته عنها، ولا بها الحزن فتمسحه بدمعها، ولا بها الهم ولا بها الغضب، ولا أمر مما يتواصفه أهل البلاء ويبثونه في شكوى أحزانهم وإنما ذلك شيء إن يكن من الحياة فليس بالحياة، وإن يكن من الموت فليس بالموت ؛ ولعله منازعة الحياة والموت على قلبها !

ما بك يا لويز وقد بت زوج الكونت الذهبي، وهو عما قليل آخذ ما أمامه، وتارك ما وراءه، وما بك أيتها المسكينة وقد كنت فقيرة بائسة لا تملكين قوت يوم فقبضت على أعناق سبعين سنة تجمع المال وتكثره، وما بك – عمرك الله – وقد خرجت من الكوخ إلى القصر، وصعدت من العريش إلى العرش، وإن كانت حواء قد طردت من الجنة فقد طردت أنت إلى الجنة.. وفي الجنة قوم يقادون إليها "بالسلاسل"..!

قالت المرأة وهي تناجي ربها : ماذا قضيت علي ؟ لقد وضعت الدنيا في راحتي وكأن مملكة آمالي مرسومة في كفي ؛ ولكن أي فرق بيني وبين تمثال من الذهب الخالص في منزل هذا الرجل ! لقد رددتني من فقرى وذلتي إلى رجل رددته أسفل سافلين فما يريني الدنيا التي أعرف أنها الدنيا ولكنه يريني الآخرة !..

يا ويلتا! إن لم يخجل الرجل من شيء أفلا يخجل من أنه لا يخجل؟ أبي هذا الموت لشقائي إلا إن يتخذني زوجته، وكنت خليقة أن أجعله أسعد رجل في الدنيا لو اتخذني ابنته!

اللهم إنك رزقتني العافية في كل جوارحي و لم تصبني إلا في القلب !.

يا ويلتا ! ما أنا لعبة في يد هذا الطفل، لا يلذه شيء أكثر من تحطيمها في طرق لذته، وقد خلقت يا رب من يحطم القلوب الصحيحة، و لم تخلق من يستطيع أن يجبر القلوب المكسورة ؛ وأنه ليس فيما برأت وذرأت مخلوق أشد تعباً ممن يفتش في قلبه عما ليس في قلبه، وهل في الممكنات أو في أشباه الممكنات أن أجد في ناحية من قلبي حب هذا الزوج؟

لقد عرف الناس أن قلب المرأة كثير العبث، وهذا الذي يسمونه دلالا ويحسبونه في الحب إنما هو شيء من عبثه ؛ وأن هذا القلب إنما خلق ليحب، ولذلك أعطى قوة يخلق بها الحب من العدم ؛ غير أنهم جهلوا فيما يجهلون من أسرار المرأة أن ذلك القلب إنما جاءه العبث بالرجال من أنه لا يطيق أن يعبث به أحد من الرجال ؛ ومتى وجد من هؤلاء من يريده بنادرته ويجعله من هزله معرض السخرية وموضع العبث، لم يكن في الدنيا أحد أبغض إلى المرأة منه، وإن كانت الدنيا كلها في طلعته، وإن كان مخلوقاً من رونق الشمس.

أليس النساء يحببن حتى الكلاب ويرفهنها ويغالبن بها ويترلنها منزلة الولد في الحب والانعطاف والتوجع والتحزن ؟ فسبحانك اللهم ! إن هذا القلب الذي يسع حب الكلاب يضيق عن حب كثير من الرجال إذ يحبون المرأة حبًّا ليس فيه شيء من روحها – حب الزانية أو الاستمتاع أو الخدمة – فكأنهم بذلك يبغضونها بغضاً فيه كل روحها.

يا ويلتا! أعجزت أن أجد في هذه العاجلة نفساً أرى فيها نفسي ؟ وهل حرمت علي كلمة الحب فلا يفيض بها صدري ولا ينطلق بها لساني ؟ وهل خلقت لؤلؤة لأكون في

عقد من الحصى، ورسمني الله بهذا الجمال ليعذبني بهذا القبح ؟ وما عسى أن ترد علي هذه النعمة ما دمت لا أجد لها سبيلاً إلى قلبي ؛ وما دام هذا القلب لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يعامل بالمال..؟

ضل ضلالكم أيها الناس إذ تحسبون النعمة حق النعمة في الغنى وحده، وتمضون الأمر على ما تخيلتم من ذلك، ولا تدرون أن الله ينتقم بالغنى أشد مما ينتقم بالفقر ؛ فلو آتي ابتليت بالمصيبة وأنا امرأة خاملة لاحتملتها وقلت حمول عرفته فما يبلغ به ولا يزيدني بنفسي ولا بنفسه معرفة ؛ ومن رحمة الله بالفقراء الخاملين أن في كل بلاء يعتريهم ما يعينهم على حمل بلاء أشد منه، ولكن الضربة اليوم لا تصدع الصدفة بل تسحق اللؤلؤة ؛ فاللهم لا قوة إلا بك !

وما أشبهني إذ قتل هواي هذا الكونت، بزنجي من زنوج أمريكا اغتال سيدا من البيض، فلم يجدوا له عذاباً إلا أن يشدوا قتيله في وثاقة، وتركوه يلى تحت عينيه ويسيل جوفه تحت أنفه ويتناثر لحمه على صدره !.. وهكذا يقتله القتيل وحده بالرعب والجنون قتلة لا وصف لها في لغة الحياة.

ولقد كنت بائسة يطير بها القضاء ويقع فلا تزال دهرها تحت جناحٍ مخفوض من رحمة الله أو فوق جناح منشور من الأمل في رحمته ؛ فلما وجدت الغنى واستشرفت للسعادة، شغلني الله بهم نفسي، فشغلتني نفسي عن النعمة فلا تزيدني النعمة إلا هما ! وقد كتب الله علي أن يقتلني بغض هذا الرجل فوهبني الغنى من يده وحسب الناس أن ذلك لكيما أستمتع به، وعلم الله أن ذلك لكيما أتصل بقاتلي ! فاللهم قد أحيط بي وليس ورائي منفسح، فمن حيثما التفت لا أرى غير ما قضيت علي أن أرى ؛ وهذا امتحان أينما أتوجه في الحياة لا تقابلني الحياة إلا بمسألة من مسائله المعضلة !

إن كلمات القضاء لا تقرأ لأنه لا يترل بالناس إلا معانيها، على أن الكلمة الأزلية التي يكون معناها هذا الزواج وهذا الزوج لابد أن تكون جملة كاملة من غضب الله في السماء، لا يقابلها إلا سيرة كاملة من ازدراء الناس في الأرض.

قال "الشيخ علي" : ونفرت دموع هذه المرأة تخفف من يأسها، وأنه ليأس أكبر مما

تحتمل نفسها من الصبر لو أنه من وجه ذلك الزوج وحده.. فكيف به ومع ذلك الوجه شبابها الهالك، وآمالها الضائعة، وغصة من شماتة الناس وازدرائهم، وبلاء من نعمة سابغة ستنقلب فضيحة وسخرية ؟

واهاً لك أيتها المسكينة ! إن مصيبة الأغنياء لتكشف نفسها فهم يحملونها ويحملون آراء الناس فيها، وإن المصيبة لتكون واحدة ولكنها ترتد إليهم من قلوب الشامتين من أعدائهم والمتربصين من حسادهم والمتوجعين من سائر الناس وكأنها مصائب كثيرة لا تعد.

والمرء لا يأخذ من الله بشرط ولا يعطيه الله على شرط ؛ فإن كان في الغنى تلك النعمة ففي الغنى هذا الهم ؛ وما رأيت أيسر اضطراباً من الماء الراكد قذف بحجر ؛ إلا الغني الغافل قذف بمصيبة !

ويحكم أيها الأغنياء ! متى رأيتم ثمرة لا تسقط أبداً من غصنها الأخضر وثمرة تسقط من الغصن ثم ترد إليه فتعلق به وتنضج عليه، فاعلموا يومئذ أن غناكم هذا نعيم لا رزئية فيه ولا مصيبة، لأن هذا الكون حينئذ يكون فوضى لا نظام له ولا قرار.

وانصدع الفجر، وأقبلت الحياة تتنفس من مباسم الأزهار، وتتغنى بألسن الأطيار، والفتاة موجسة أن ترى طلعة شيخها، وكأن هذه الطلعة صبح غير الصبح، وودت لو وقف الزمن، فإن لم يمكن فوقوف الأرض، فإن لم يمكن فوقوف قلب هذا الشيخ ؛ وخيل إليها أنها ستقرف بإثم منكر إذا هو بادرها قبلة الصباح على مثل مثل شفق الشمس من خديها، وأنها لا ترمى بمسبة أوجع ولا أمض من قوله : حبيبتي !.. وانسلخ الليل، وطارت الأحلام، وأفصحت الحقيقة، واستيقظ الكونت..

على المائدة

زهيرات ناضرة كأنما اختبأت فيها ابتسامة الفجر، عاطرة كأنها رسالة اللقاء بعد الهجر ؛ بديعة التميق تحسبها قصيدة من شعر الألوان، متفتحة للحب وكأنها لكتاب الحب عنوان، متلائمة مصفقة، متلائمة كالشفة على الشفة، قائمة في جلالها وحسنها كأنها في خلقة الجمال آية، وكل زهرة في لونها كأنها لدولة من دول الحسن راية، وقد جلست إليها

فتانة كأنها في رقتها روح النسيم وفي نضرة شبابها روح الحديقة، ولاحت الأزهار كأنما هي خيالات جمالات جمالها،وظهرت الغادة كأنها هي الحقيقة.

تلك هي "لويز" في صبيحة عرسها على المائدة وقد أثبتت في كل زهر لحظاً من لحاظها، ولا يشك من رآها في تلك الحال وهي ترتقب ظهور زوجها أنها تنفس على هذه الأزهار شبابها ونضرتها وحسن ملاءمتها، وتحسدها على أن ليس فيها أعواداً من الحطب.. يفسد نظامها وتنكر بهجتها وتغض من حسنها كما ابتليت هي بزوج من عود..

وإنما لكذلك، إذا خفق أقدام وضوضاء وموكب وشيء كالموسيقى، فما لفتت جيدها حتى أبصرت الكونت داخلاً يتوكأ على خادمين وله نغم مختلف.. وآهات وأنات، ومع النغم سعال كقرع الطبل. وكان الروماتزم قد دب في مفاصله تلك الليلة وبات يفتل في عروقه وأعصابه، ووعكته الحمى واجتمعت إليه علل الشيخوخة كلها تمثه بالزفاف..؛ غير أنه لم ينس مع هذا البلاء كله أن عروسه ترتقبه على المائدة، فحفزه الشوق وعاوده الصبا فطار إليها بجناحين من خادميه..

ولما بلغ ظلها أفلت الخادمين ثم ارتمى عليها يقبلها رياء ومصانعة، ثم تمسك بها يستند إليها، ثم انحط إلى يمينها، وما كادت تناوله قدح اللبن يرتضعه.. حتى غمره الألم وهاج داؤه، ففتح فاه وصدحت الموسيقى بنغم مختلف من آهات وأنات، ومع هذا النغم سعال كقرع الطبل..

ورأت "لويز" ذلك فرقصت أحشاؤها..! فلم تملك المسكينة أن اقتلعت جسمها من الكرسي وانكفأت هاربة إلى حجرتها، وانطرحت في غمرة أخرى من الألم، وبقيت هنالك ملقاة يدار بها، وكانت لم تغتمض في ليلها، فاصطلح على جسمها هم الليل والنهار.

فصل خامس في السنة

وزالت هذه الغشية عن الكونت بعد أيام، كانت العروس فيها من روح الأمل كالمختلعة إذا أخذت كتاب طلاقها، أو الأمة إذا وعدت بعتاقها ؛ وكأن دعاؤها لله كلمات لا تعدوهن، تقول : اللهم رحماك ! فأنت المصيب وأنا المصابة، تلك قوتك وهذا

ضعفي !

وكانت إذا حمدت الله توادرت مع زوجها فيما يحمد الله به من حيث لا يشعر أحدهما أو كلاهما، كأن للحب الشديد والبغض الشديد لغة واحدة ؛ فكان هو يقول : الحمد لله إذ لا تراني ! وتقول هي : الحمد لله إذ لا يراني !..

وباغتها الرجل منصباً عليها، فلو أن ميتاً طالعها من قبره ما كان أروع لها عنه ؛ قلب حيواني يسكن من أضلاعه الخربة في شقوق وظهر كالقوس يحمل من روحه سهماً ليس له إلا المروق، وعروق ناشرة كأنها في جلده المتغضن خيوط في خروق..! ودخل عليها كما يدخل في الشتاء بكلوحه وبرده على الروض النضر والبقية الضعيفة من ورده ؛ ونظرت إليه فلم يقع من نفسها إلا موقع الهموم على الهموم، ولم يكن في عينها إلا كما يكون الحلم في رأس المحموم !

وجلس إليها الشيخ يتطفل ويقترح ؛ وكانت لويز تعرف أن السنة أربعة فصول، أما سنتها هذه فكانت فصولها بعد اقتراح هذا البغيض خمسة : الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وشهر عسل الكونت !.. فقد لج الرجل في عناده وأبى إلا أن يكون له ولها "شهر العسل" ؛ ومما زاده لجاجاً وعتوًّا أنه كان يخشى أن ينسلخ الشهر ؛ فقد ذهب نصفه في تجرع "الدواء" لم يبق "للعسل" إلا ريثما يمحق القمر أياماً معدودات..

ثم انصرف من لدنها على أن ترصد للسفر أهبته وأن ينطلقا على جناح غراب.

واستقبلت العروس ليلتها وجعلت تقلب وجهها في السماء وترنوا إلى النجوم بعينين قد ثبت في إنسانيهما خيال ذلك الرجل كما يثبت خيال القاتل في عين المقتول، فلم تر في النجوم إلا هرم الدهر وتحجر الأيام وقد استيقنت أن نجمها طامس لا محالة وكأنما خرج عن الفلك، وضل في ذلك الحلك !

وما هي إلا خطرة الفكر حتى لاح في مرآة نفسها خيال ذلك الشاب الذي أخلبها أياماً بالهوى، وكان لها منه الداء وكان له منها الدواء، وأغواها في عرف الناس ولكنه هو ما ضل وما غوى. وكان هذا الفتى قروياً فحلاً ظريف الهيئة، واستحكم القامة ! عريض الصدر، تام الخلقة وثيق التركيب قد ارتوت مفاصله واستحكم نسجه، وله مع ذلك

خلابة، وفي لسانه دعابة، فما أطلى حديثه وأنجاه. وما أحلى خبره إذا كان من الغزل مبتداه.

وقد أحب الفتاة أكثر مما أحبته، ولكنها كانت غريرة لا تتبين منزلة ما بين الحب والاستسلام، وبين ما يعده الرجل وعداً بالفعل وما يراه وعداً بالكلام ؛ ولم تعرف أن هذا الحب سلاح ذو الحدين، فالمرأة تقتل به من ناحية الرجل، فإن غفلت مرة عن نفسها قتلت هي به أيضاً من ناحيتها، وأن حب الرجل حب مجنون بطبيعته، فإذا لم يكن حب المرأة عاقلاً انقلب كلاهما حيواناً طامس القلب لا يبالي ما ج على نفسه، وأن الرجل يقاد من رغبته ما دامت أملاً في قلبه، فهو يعد المرأة ما شاءت وشاء لها الهوى، حتى إذا انقطع هذا الزمام انقطع ما بين لفظ الوعد ومعناه، فأخذ منها ما أخذ وترك في يدها ما أعطى، وما عسى أن يكون قد أعطاها إلا آمالاً ومواعيدًا وغروراً من زخرف القول ؟ وكذلك أمر الرجل والمرأة : تحسب الفتاة إذا هي أحبت فاستأسرت لصاحبها أنها تبذل في مرضاته أعز ما تملك، وتنوله خير ما استؤمنت عليه، وتعطيه ما لا تستعيض منه آخر الدهر، وأن ذلك أحرى أن يؤدم بينهما، وأن يكون ميثاقاً للحب غير منقوض، ويحسب الرجل أنها لم تنله إلا شيئاً هيناً قريب المنالة، هو عندها وعند امرأة، فإن كان سري الخلق نبيل النفس رثى لها مما صرات إليه، وندم كما يندم على الإثم، ولا يكون همه إلا أن يلتمس المخرج من أمرها، فإن طارحته حديث الزواج رأى أن من فرطت له حرية أن تفرط فيه، وبهتها بهذه الكلمة وسلم وقد مات الذي بينهما، وإن كان لئيم الطبع خسيس النفس شد على رقها واتخذ من ضعفها قوة ومن خوفها أمنا حتى إذ ملها تنكر لها ثم فلم تعد تصلح له ولا يصلح لها، وكلا الرجلين سافل دني زمر المروءة وإن قال الناس فيهما سري ولئيم.

فالسحابة تنهل بمائها، ثم تجمع مرة أخرى في سمائها، والزهرة تقطف لحسنها ثم تنبت مرة أخرى في غصنها، ولكن العذراء حين تفرط في خدرها، وتضع نفسها دون قدرها، لا تبرح شقية حتى تنزل في قبرها.

وهكذا لا يزال الرجل في عتوه وظلمه كالساحل، ولا تزال المرأة في ضعفها ولينها كالموجة، فلو أن ألف موجة عاتية يصدمن الساحل لاستباحهن وما سلبنه مقدار شبر من

الرمل ! وما اعترض رجل وامرأة في خلق العفة، إلا كانت هي الساقطة وحدها في الاعتبار، لأن العفة إنما عرفت بالمرأة من أصل الخلقة، وإنما يتصاون الرجل تشبهاً وتقليداً، فإن هو زل مرة وقارف الإثم فقد أخطأ في التقليد و لم يفقد شيئاً من طبيعته، ولكن المرأة متى فعلت ذلك فقدت من نفسها وغيرت في تكوينها وأخطأت في الأصل الذي بنيت عليه طبيعتها وقامت به شرائع الله وهي فيه نظام الأمم فلا جرم كان عقابها على الخطأ عقاباً نفسياً يجمع من شدة الطبيعة إلى عنت الشرائع إلى قسوة الاجتماع، ولهذا كان شر عيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة بها.

قال "الشيخ علي" : وانطلقت نفس "لويز" لمسرى خيال حبيبها، وكانت تبغضه دون البغض إذ هو مسعدها ومشقيها، فصارت بعد زواجها تحبه فوق الحب، إذ لا ترى لها مسعداً غير ذكراه، ولا تعرف على ظهر الأرض من أشقاها غير الكونت.

ولما ذكرته انهملت دموعها فجعلت تبكي حتى انجلت سحائب همها، ثم أشرقت كما تصحو السماء في أعقاب المطر، فلو رآها أشعر الناس في ذلك الجمال المشرق الحزين الذي تورد حتى التهب، لوقف عندها وقفة العابد في المحراب يشعر بالقوة الأزلية ولا يحسن أن يصفها. وأي شاعر تحيط نفسه بهذا الشقاء الذي رفعه جمالها الساحر من بين آلام الأرض وألحقه بذلك الألم المنفصل من السماء الذي لم تشهده الأرض إلا مرة واحدة يوم جلست حواء تبكي أول بكائها بعد خروجها من الجنة..؟

ويا الله ما أروع الجمال حين يتألم ويحزن ويحضر الجميلة همها ! إن مثل من يحاول أن يصف دموع هذه الجميلة وحسراتها وصفاً ناطقاً يتنفس به القلب، كمثل من يريد أن يخلق من سحر البيان زلزلة ترجف بها الأرض حين يبالغ في وصف الزلزلة، وما اللغة إلا أداة، فكيف (ويحك) تستعمل هذه الأداة في صفة قوة تعجز عندها كل وسيلة حتى الشعور الذي أبدع اللغة ؟

لقد جمعت المقاييس بين أقطار الأرض، وطوت ما بين الأرض والسماء، وداخلت ما بين أنجم السماء بعضها من بعض، ولكن أية أداة تعين لنا درجة الإحساس بين نفس عاشقة مدنفة تشهد آلام نفس معشوقة، وبين عيني شاعر غزل وثاب الخيال تنظران في

عيني امرأة جميلة باكية، وبين ألم جامد جاف يضطرب في نفس الرجل، وألم سائل متدفق تضطرب فيه نفس المرأة..؟

إن هذه الأنفس إنما تشعر بمقدار ما فيها من الإحساس لا بمقدار ما في الحقيقة من مادة الشعور، وكأي من رجل أبله متغفل يدور مع الآلام والأوجاع دوران الغبار في العاصفة، فإذا رأيته توجعت له وداخل تلك الرقة عليه وثارت نفسك من أجله ثورة السخط على هذا الاجتماع الإنساني وتمر بالرجل ثم تنساه؛ ولكن هناك طفلة، طفلة صغيرة قريبة العهد بالغيب قد ضلت بيت أبويها في المدينة المترامية فمشت ذليلة ضائعة يتحير الدمع في عينيها كما تتحير الألفاظ بين شفتيها، وقد ساورها الخوف، وتوثبت نفسها فزعاً لهول ما هي فيه، وجعلت عيناها تتوسلان إلى الناس بالبكاء، ولسانها يتلجلج بألفاظ مرتعدة كأنما ينتفض عليهم قلبها الصغير. وهي في ذلك لا تبرح تتمثل أبويها فتضطرب اضطراب الفرخ إذا سقط من وكره ولم ينتهض، وترى أن المصيبة قد انحصرت فيها وحدها من دون الناس، فتبكي بكاء تنشق له، ثم تعود إلى التوسل بعينيها الدامعتين وبألفاظها المتلجلجة فانظر وأنت أبو مثلها ما عسى أن يترل بك من الحسرة ويتغشاك من الهم إذا رنت إليك هذه الطفلة من وراء دموعها تسألك أن تدلها على بيت أبويها الماثل في رأسها الصغير، وهي تحاول بذلة ومسكنة أن تنقله إلى نفسك وتبنيه فيها بألفاظها وإشارتها الضعيفة لتهدى أنت إليه ؟

فالمصيبة ليست مصيبة بمادتها ولكن بما يقابل هذه المادة من نفوسنا ؛ ومن ثم فهي لا تؤثر فينا بنفسها ولكن بالكيفية التي نقابلها بها.

قال "الشيخ علي" : ثم سكنت "لويز" هنيهة لذكرى أيامها الأولى وهي تعلم أن لا رجعى لها، فقد استيقنت أن هذا الغنى ضرب بينها وبين الفقر حجاباً ولكنه رفع بينها وبين الشقاء حجاباً آخر كان ذلك الفقر وحده هو الذي يمنعها منه ؛ وكأن القدر لم اختط لها التعاسة رسم هذه الخطة بقلم من ذهب..

واستشرقت نفسها لخاطر غريب ألم فأضحكها على ما بها من الهم، فقد أحضرت خيالها ذلك الحبيب الأول في شبابه الغض، وقوته الثائرة، وفورته العنيفة، ونشاطه المهزوز،

وإرادته على حب امرأة في أرذل العمر – وهو عمر "الكونت" – يلوح وجهها في العين كما تلوح القفار، ويمتد أنفها بين الوجنتين كأنه جحر في أحجار، ويضحك ثغرها الأدر فلا تشك أنه في تلك الصحراء "غار" وقد ثابرت عليها الأوجاع والأمراض، حتى أصبح جسمها بين يدي الموت كالخيط بين شقي المقراض !..

... ثم جعلت ذلك الحبيب يتزوج منها لمالها وغناها وقد أصاب عندها ملء أطماعه ذهباً وفضة، ثم وصلت بين شعلة فؤاده الملتهب هوى وشباباً وبين هذا الجسم الفاني الذي يشبه حطام اليبيس، ثم أرادته على أن يعتقد أنها "السكرة" التي وضعت في كأس حياته لتحليها، ثم نظرت لترى ما يكون من أمره وأمرها في الحب حين لا يكون الحب إلا مراغمة وإكراهاً ؛ فإذا الحلم قد انهال، وإذا الوهم قد استحال، وإذا الشاب لا يحب تلك المرأة ولا في الخيال، فجهدت أن تذكر في تاريخ الناس من يكون قد امتحن بمثل هذه المصيبة وصبر لها كما يصبر من ذات نفسه على آفة أو عاهة أو مثله، فأبى عليها الواقع أن يخرج لها مثالاً واحداً..

..فكدت ذهنها في تصور هذه الحال وتقليبها على وجوه مختلفة فلم تستقم لها صورة صحيحة، وثبت عندها أن حب شاب قوي في الثلاثين لعجوز هالكة سبعين هلكة أمر يكاد يكون في استحالة الجمع، كطرح السبعين من الثلاثين في حساب العدد!

وعجبت أن يستأثر الرجل وحده بهذه الأنفة ويلتمس لنفسه في هذا الباب ما ينكر على المرأة أن تستنكره، كأن هذه المرأة عجماء لا تبالي من صاحبها إلا العلف، ولو انتهى بها إلى التلف؛ وكأن كل امرأة إنما هي اسم على جسم، فليس على الرجل إلا أن يختار اسماً ثم يثبته في وثيقة الزواج بعد أن يساوم عليه؛ أو كأن المرأة بلغت من الجفاء وضعف التمييز بحيث لا تأبى أن تتخذ أعواد فرشها، من أعواد نعشها ؛ وأن تقيم لها قبراً في البيت، وتنظر كل صباح في وجه ميت؛ وإلا فكم من فتاة كالقمر أخفاها نهار المشيب، وكم من عروس للحب زفت إلى غير حبيب، وكم من وجه صبيح، يقبله ثغر قبيح ؛ وكم من كعاب، سال عليها اللعاب.. وكم من حسن هو رمز الحياة قرن به الموت رمزه، وكم من قد أهيف كالألف لا يرى إلا شيخاً أعجف كالهمزة..

وهنا انتبهت "لويز" إلى زوجها المتهدم الذي هو همزة القطع، وإلى تصابيه المضحك وحماقته العمياء وحبه الأخرق ؛ فانتفضت من الغيظ وكاد بعضها يحطم بعضاً، وجعلت خواطرها تنبض في رأسها كلمح البرق وأخذت تلتمس الوسيلة لرد هذا البلاء عنها أو مدافعته، بيد أنها كلما ابتدأت فكراً انتهى بها إلى قولها : ما عسى أن أصنع؟!

هي لا تفكر إلا فيما ينبغي أن تصنعه، ولكن الفكر يقضي بها إلى هذا السؤال بعينه، فكأنما من الهم والحيرة منعزلة عن نفسها، وقد نفر منها فكرها وقلبها وحظها ولم يبق معها إلا روحها المعذبة، وهي كذلك بينها وبين زوجها وبين القدر!.

ولبثت زمناً لا تجد من رأيها إلا قطعاً وأشلاء، حتى لمحت من نافذة القصر مركبة تدرج في الطريق، ورأت سوط الحوذي يتلقى الأمر منه إلى الجوادين فلا يترل عليهما إلا انطلقا ملء العنان، كأنما يحاولان الهرب منه ولا يعلمان أنهما يهربان به ؛ فرثت المسكينة للبهيمتين، ثم كأنما حشرت لها كل مركبة على الأرض في صعيد واحد، فلم تذكر أنها رأت قط سائقاً ليس في يده سوط ما دام بين يديه حيوان..!

وظلت واجمة عند هذا الخاطر هنية، لأنها ما برحت تتلقى من ضربات القدر وهي تعدو في الحياة عدواً فيه من السرعة بمقدار ما في هذه اللذعات من الألم!.. ثم قالت : ترى أي حيوان في مسلاخ هذا الهرم؟ وما كذبت أن قلبت الخاطر على وجهه الآخر، فتناولت السوط واستولت على مركبة الأقدار ولم يبق أمام عينها إلا سبيل الحياة وظهر الكونت!..

وكذلك فاءت من غضبها إلى رضا أقبح من الغضب، ورأت أن هذا الشيخ المأفون الذي يتطاوع للصبا وقد جاوز السبعين وهلك في الدهر، ثم لا يستحي أن يجعلها مثلة على أعين الناس، وأن يكون لها مخزية ولا كالمخزيات جدير به أن يجد منها كفاء ما وجدت منه، وجدير بها أن تبدله من شهر العسل شهراً هو أحق به وأهله، وهو على ذلك أقرب الأشياء من العسل لأنه.."شهر النحل"..!

قال "الشيخ علي": هكذا يفسد الرجل المرأة وهو يدري أو لا يدري، فهو يبتغيها متاعاً ويريدها ملهاة، ثم لا يقدر فيها غير الطاعة لما ابتغى وأراد ؛ كأن الطينة الإلهية التي

جبل منها الرجل شديداً متماسكاً، بقيت منها بعده هنة ضعيفة فتركت حتى ركت وانسحقت ثم خلقت منها المرأة ذليلة طائعة.. وإن أقدر خلق الله ليكون معه الدرهم فاضلاً عن حاجته فلا يجد ما يمنعه أن يبتاع به الزهرة الناضرة، ولكن العجيب من أمره أنه إذا احتازها لا يلويها بين أصابعه ولا يدنيها من أنفه إلا بعيداً بعيداً وقليلاً قليلاً، بل إنه ليستحي لقذره من طهرها، ولتنته من عطرها ؛ فلا يحملها حتى يتجمل لها، ولا يظهر بها حتى يكون في الجمال أهلها، وما أدري كيف أدبته الطبيعة هذا الأدب مع شبه الجمال، ولا تؤدب مثل ذلك الهرم الأحمق مع الجمال نفسه؟.

ويعمد الرجل متى أصاب مالاً إلى الطيبات من صنوف الطعام وملذات الشراب فيتضلع ويتملأ، وليس في ذلك من حرج، إذ هو ماله ينمو في باطنه؛ فإن ربح أو خسر فإنما "المضاربة" في معدته..ثم يعمد أقبح خلق الله وجهاً وأظلمهم سنة وأشامهم طلعة، بذلك المال نفسه إلى أجمل النساء فيرخي عليها أستار بيته ؛ ويساهمها قبحه وجمالها، وإنما هي في رأيه بعض الطيبات وصنف شهي من طعام القلب ؛ فترى في أي جهة ينمو هذا المال الذي بذله وتندى به، فإني لا أرى له نمواً في قلبه ولا في قلب تلك الحسناء؟

أما هو فما إن يزال يعرف منها البغض، وأما هي فما إن تزال ترى فيه القبح ؛ وأحسب لو أنفقت ما في خزائن الأرض كلها لتأليف بين الحسن المبغض وبين القبح المحب ما ألفت ذات بينهما ولا زدت كل واحد إلا من طبعه.

وكيف يرى هذا الدميم أن مرأة بيته التي اشتراها وبذل فيها واختارها على عينه لا تظهره أبداً إلا دميماً، وهو كلما بالغ في رونقها وصقلها بالغت هي في إظهار قبحه ودمامته، ثم يريد أن لا تراه امرأته الحسناء الفاتنة إلا جميلاً فاتناً ولا تكلمه إلا في الحب، ولا تقبله إلا قبلة الهوى ؛ كأنه هو الذي خلق لها عينين ولساناً وشفتين..؟

ولعمر الله لو أن في أضلاع هذه المرأة قلب رجل من صيارفة اليهود قد جثم على منكب الطريق وسرح الذمة والدين والظن واليقين وجنود إبليس أجمعين في طلب الدرهم يأكله سحتاً،وينحته من أيدي الفقراء نحتاً، لما رأته على ذلك المال وذلك إلا كالخرقة فيها دينار؛ فهي هي لم تخرجها قيمة الذهب الغالية، عن كونها في اليد والعين خرقة باليه!

أيريد الرجل لسعادته امرأة لا نفس لها ولا قلب ؟ لعله يحاول ذلك، ولكن كيف تسعده إذن ؟ إني رأيت في معاشرة الحزين للحزين شيئاً من الفرح يتنفس به الحظن، فليت شعري أي مهناً أكثر لذة وأحسن إمتاعاً من معاشرة اثنين كلاهما يهنأ الآخر؟.

أيها الهرم الأحمق الذي يستبد بالجميلة الفاتنة! إنك تعبث بذنب السفينة فإذا انحرفت هنا وهنا زعمت أنها تضل الطريق لسوء تركيبها..؛ ألا فاعلم (ويحك) أنك لا تصلح أن تكون ربان هذه السفينة؛ وإذا كنت تستطيع أن ترفع شراعاً أو تحرك مجدافاً فما أنت وهذه الباخرة؟ ماذا تصنع (ويلك) في آلات هذا القلب الذي صنعته يد الله ليخوض لجج الحب في بحر الشباب إلى ساحل السعادة، وليس بينه وبين الهلاك إلا أن يرتطم في ذلك البحر بصخرة الموت التي لا تكون أكثر ما تكون إلا من رأس رجل هرم!.

عسيت تقول إنك غني ملء الأمل الواسع، وإن هذه الحسناء ستفضي من طريق مالك إلى طريق حبك، لأن المال -زعمت- أوسع طرق الحياة وأطولها، وفيه منفذ إلى كل طريق شئت أو شاء الهوى.. فلعمري إن هذا المال كما تزعم، ولكن لا يذهبن عنك أنك لا تعرف إلا فاتحة الطريق إلى هذه الحسناء، وأن خطط الآمال ليست من "شوارع التنظيم" أو الطرق السلطانية التي يفضي كل إلى جهة بعينها هذا الغنى الذي تفتحه لها ؛ ثم لا تلبث أن تنعطف إلى مذهب من مذاهب قلبها، ثم تأخذ من هناتك في ناحية من نواحي مصائبك، لأن سبيل حبها وسعادتها من تلك الناحية ؛ ثم تفضي من كل ذلك إلى طريق من الحياة إذا هي أبصرتك فيها رأتك وليس من ورائك للبغض مذهب. ورأت وجهك ثمة كأنه صفيحة مما تكتب عليه أسماء الطرق، وقد كتب عليها "شارع المقبرة" ...

أنت أيها الأحمق استنقذت هذه الحسناء من الفقر، ثم جعلت تباعد ما بينك وبينها ؛ فأخذتها خادمة،وجعلتها سيدة، وبصرتها بما كانت تجهل من فنون الجمال وأساليب الهوى، ثم جعلت غاية كل ذلك إمتاع جسمك الفاني ولذة قلبك الخرب، فنسيت نفسك بادئ الرأي و لم تذكر إلا الفتاة فاتخذتك صديقاً، ثم نسيت الفتاة آخراً و لم تذكر إلا نفسك فاتخذتك عدواً..؛ فلولا تركتها على جهلها وغرارتها ما دام العلم بالحب لا يكشف منك للحب إلا عن خرافة..؟

ويا عجباً من غرام الشيوخ بالفتيات! فإن أكثر من أنت واجد من المحبين وأهل العشق متى أصابه الكبر وذكر حوادث حبه، رأى فيها ما يسميه جهلاً وما يسميه حماقة وما يسميه غفلة وما يسميه خطيئة ؛ كأن الهرم يجعل الأشياء نفسها هرمة، إذ يترع منها أوهام الشباب وغروره فلا تظهر من ثم إلا حقائق مخلصة ؛ فما عسى أن يرى الشيوخ فيما يسمونه غراماً ؟ بل ما عسى أن يرى الحب في هؤلاء الشيوخ "المتطفلين" إلا ما يسمى حماقة وجهلاً وغفلة وخطيئة ؟.

يحب الفتى الناشئ حباً طاهراً يستوحف قلبه فيقول أكثر الناس : أحب قبل زمن الحب!

ويعشق الرجل الهرم عشقاً فاسداً يستوقد ضلوعه فلا يرضى أن يقول مرة واحدة ولا أن يقول عنه أحد إنه أحب بعد زمن الحب ؛ مع أن الفتى رجل يبنى، والهرم رجل يهدم ؟

ولو لم يضرب الله على بصره لعلم مما تشرع الطبيعة أن أحق الناس بالخيبة رجلان : رجل وجد قبل زمنه فلا يحسن أن ينفع أو ينتفع ؛ ورجل أتى بعد زمنه فلا يحسن أن ينتفع أو ينفع !

متى كان للرجل حقوقاً فقط وكانت المرأة واجبات لا غير، فقد خلا الرجل من العقل وخلت المرأة من القلب وخلا الاثنان من هذا المعنى الروحي الذي يسمى الحب ؛ فإن لم يستطع ذلك العاشق الهرم أن يسترد لنفسه الصبا الذاهب حتى تحبه تلك الحسناء طائعة، فليسترجع لتاريخ الأرض وجشيته الأولى حتى تلوذ به تلك المرأة كارهة !

ويل للإنسان من هوى نفسه فلولا هذه الحماقة فيه لما وجد على الأرض خطأ، لأن كل إنسان حين يخطئ فإنما يريد حقيقة من الحقائق غير أنه يجعل مركزها في رأسه ولا يعتبرها إلا من هناك، مع أن مركزها في العالم.

شهر النحل

قال "الشيخ علي" : كل خطب عظم مدة هان بعدها، إلا خطب المرأة فإنه متى عظم لا يزال يعظم، وما رأيت في أصناف البلاء كالمرأة السلطة إذا هي استكلبت فكأنما جعل الدهر الجائر أيامها خطاً من خطوط مداره، لهذا الزوج ! فهو كلما خرج من بيته خرج

هزيان يتنقب، وكلما انقلب إليه انقلب خائفاً يترقب ؛ ولا تزال تعرف في عينه نظرة مغلوبة وأخرى مسلوبة، وفي قلبه مصيبة مستقرة وثانية مجلوبة، وترى على وجهه سمة استخذاء كأنها مسحة استهزاء، ولروحه ظلاً على فمه كأنه ظل النخوة الهاربة من دمه ولا يزال مع امرأته المكابرة كأنها ذنب وكأنه ندامة، وقد جمعت عليه الدنيا والآخرة فكأنه من خوفها في موت ومن لسانها في "قيامة".

وما في الله خلق أعظم من المرأة، فهي طبيعة وحدها، غير أنها الطبيعة الدقيقة الحسن ؛ وليس يدرك الرجل حقيقة نفسه قبل أن يخلطها بنفسه ؛ فإذا رأيتها خاملة مغمورة، أو ساقطة مزجورة، أو ميتة في الأحياء مقبورة فلا ترين أنها مغلوبة للرجل ولكنها مغلوبة لإحساسها، وقد وفر الله عليها من القوة ما شاء ولكنه غمز منها موضعاً دقيقاً فخرجت بحيث تراها أقوى الأشياء وترى نفسها كأن لا قوة فيها، وهذا سر من نظام الطبيعة، فإن أشجع الناس الذي لا يخاف شيئاً يخاف أشياء كثيرة من نفسه، فلولا أثر يد الله في إضعافها ما قامت للرجل معها قائمة.

وهذا الموضع الذي أسلمها ضعيفة مستخذية إنما هو جهلها بتصريف إحساسها، فليست القوة إلا شيئاً طبيعياً في هذا الوجود كائنة ما كانت، وإنما الشأن كله في العلم بطريقة استعمالها، وما من رجل يداري المرأة نوعاً من المداراة فترضى عنه وجهاً من الرضا، إلا رآها في يده أضعف ما خلق الله، هينة لينة سمحة مطمئنة، إن كانت دون الملائكة فهي فوق الناس، إذ هو إنما يستولي على إحساسها فيأمن أن تصرفه فيغير مرضاته ومحبته ؛ ومن ثم تصبح كأنها صورة من إرادته وكأن في نفسها نفسه.

فإن جهل الرجل كيف يداريها، وانقطعت الأسباب المختلفة بينه وبين رضاها، ولم يكن أهلاً منها لما هي أهله منه استوقد إحساسها وبصرها كيف تناله ومن أين تأتيه، فابتلي منها بفتنة ما تمدأ وقدقما، فما السابح في البحر إذا أراد أن يقيد الموجة العاتية بالحبال، ولا المصروع إذا حاول أن يدع بيده ما أفزعه من جن الخيال، ولا الطفل يبتغي أن يمسك القمر في الماء، ولا المجنون يتطاول فيقتلع النجم من السماء - بأقدر ممن تبغضه المرأة إذا زعم القدرة على إرغامها، وتصريف زمامها، ومن تحقره المرأة إذا زعم القدرة

على ردها، وإرجاعها دون حدها ؛ ومن تصول عليه المرأة إذا ادعى القدرة على إسقاطها، والقوة على التقاطها !.

فليس يعجز الرجل في سلاطة المرأة إذا هي سلطت عليه ما يكون من حدة جناحها، وشدة عنانها، وشرة لسانها، فكل هذه وأمثال هذه إنما هي ضروب مما تحاول من إظهار عظمتها الطبيعية المغلوبة ؛ ومن أجل ذلك قلما كانت المرأة السليطة إلا غالبة، إذا هي نفس منفجرة.

ولقد يعجز الإنسان أحياناً كثيرة أن يكون نفسه ؛ إذ لا تنقاد له الطريقة التي يغلب بها على الحوادث أو يجاريها أو ينبه لها الحذر ؛ ومن ثم ينكر نفسه كأنها غير التي يعرف من قبل، ولكن المرأة متى ثارت لا تعجز أبداً أن تكون نفسها، وما نفسها إلا أعظم ما في الخليقة من الخير والشر !

قال "الشيخ علي" : كذلك صارت "لويز" مع زوجها وانحارت إليها طبيعته الغالبة فكانت قوية به وبنفسها وكان ضعيفاً بها وبنفسه.

ألا وإن أخلاق المرء إنما هي أعصاب أعماله، فانظر ويحك ما عسى أن يكون في البغض أشد من أعمال امرأة أبغضت بعقلها وبقلبها، ولحاضرها ومستقبلها ؛ وصارت حياتها كلها من الشر والسوء كأنها لعنة يصبها الله على رأس هذا الهرم ؟.

وكذلك اندمج في إرادتها كما يندمج الثعلب في فروته الجميلة الناعمة : ترميه بالنظرة حين يتكلم فتقف الكلمة بين حلقه والوريد، ويجيئها وقد أجمع النية أن يأمرها فلا تأخذه عينها حتى يسألها ما تأمره، ويجهد أن تعلم أنه زوجها ثم ينقلب وهو يتمنى لو تعلم أنها زوجته..، ويوسع قلبه عزماً أن يفعل ويفعل، ثم يراها فيخشى أن تكون اطلعت على أن في قلبه شيئاً من العزم !

وهو لا يعلم بزعمه كيف أنكرته وكيف تغيرت عليه وكيف تنكرت له، ولكنه يريد أن يسأل كل شيء عن ذلك إلا وجهه.. ذلك الوجه الذي جعله الحب أقبح ما عرف من دائه، وأشد ما خاف من أعدائه، وما أفضى إليها مرة وهو يحمله.. إلا عرف أنه من ذنبه في حبها، وأنه من عذرها في بغضه، فيطرق إطراقة يتكلفها ويحسبها تشفع له عندها، لأن

فيها ذل الشيبة، وألم الخيبة، وشدة الهيبة، ولكن وجهه يظهره وقتئذ مظهراً ليس في معنى السماجة أسمج منه، إذ يكون كاللص الذي لا ينكر على ملأ من الناس أنه سارق، وهو مع ذلك يحرص على أن لا يؤخذ منه ما تحشم في سرقته،وقد عرفت المرأة أنها لا تغمز منه إلا مكاسر عظمه الواهن، ولا تطأ منه إلا كل مفصل مرضوض، ولكنها عرفت كذلك أنه ظالم لنفسه، إذ حملها ما ليس في طاقته ؛ وظالم لها ! إذ أرادها على ما ليس في طاقتها، فهو ظالم أشبه بمظلوم، وما مثله في حبها إلا كمثل الفراشة ؛ لا ترجع دون المصباح إلا أن تخالط ناره، فما تحتال من حيلة إلا أحست منها حتفها وتلفتها، غير أنها لا تزال تترع من ذلك ما ينبغي أن تترع عنه، وكلما تهافتت انخص جناحها من ناحية، ومع هذا كله لا تسكن ما دامت فيها حركة تنبعث.

وما من شيء إلا وقد جعل الله فيه النفع والضرر، فمن التمسه على حالة منهما لم تؤده إلى الأخرى، وما تغني الإنسان معرفة الأشياء على حقائقها إلا إذا عرف مع ذلك فروق ما بينها، وتبين الحدود الفاصلة بين الشيء والشيء الآخر، وبين الحالة والحالة في الشيء الواحد، فقد يكون الإفراط من الدواء داء مع الداء، وقد يجتمع من طعامين بلاء لا يكون من جوع يومين !

والمرأة هي هي في حاجة الرجل إليها، ولكن كل امرأة تكاد تكون جنساً بعينه في حاجتها إلى الرجل، فمن ههنا أحبت وأبغضت.

ولو أن هذه المرأة مما تنبت الأرض وتسقي السماء لقد كانت تصلح مع كل رجل كما تصلح كل رجل. ولكن لها قلباً، وحساً مع هذا القلب ؛ ونفساً مع هذا الحس، ورقة مع هذه النفس ؛ فهي إن لم تحب الرجل من هذه الجهات الأربع لا تكون قد أحبته ذلك الحب الروحي العجيب الذي يوصف بأنه حب المرأة.

قال "الشيخ علي" : وقد رأت "لويز" أن زوجها خرب من كل جهاته، وأكبر ما فيه إنه كالأرض الفضاء : إذا ضرب عليها سور وجعل في هذا السور باب، ووضع على هذا الباب قفل..، فما غناه العريض، وما ماله الكثير، ولا اسمه في أهل الغنى - إلا كتلك الحدود المضروبة على ما وراءها من الفراغ والفضاء.

وكانت ترتاع لذله وترق لخضوعه، وتود لو استطاعت أن تراه غير من هو فتعرفه غير ما عرفته وتجزيه غير ما جزته، ولكنه لم يكن يجيئها أبداً إلا بادئ المقتل، ولا يريد مع ضعفه أن يعدل عن محزها، وما أماتت من نفسه نزعة إلا انبعثت فيها نزعة أخرى، كأنه رأى في غضبها جمالاً لم يره في رضاها ، وأحس من سورة شبابها وفورة غيظها ما يعالج منه خمود الهرم وبرد الموت في عظامه، فاعتاد منها ما تجزيه، واعتادت منه ما يخزيه، ومرا على لعنات، وإذا عرض ذلك الرجل كله طعنات ؛ وأصبحت ملكة عليه وأصبح معها كما قال ذلك الحكيم : "من أراد مصاحبة الملوك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس..!".

وبعد

..فإن آلام الترع وإن لم تكن هي الموت ولكنها أشد منه، حتى إن الموت ليكون راحة منها ؛ وقد مد الله في نزع "الكونت" مدًّا طويلاً ؛ فكان يقظان العين نائم الروح، وكأنه مقبور في جلده، وكانت زوجه لا تألوه موتاً. فليس يراه أحد إلا ظن أنه لما به، ولكنه لا يموت، لأن أيامه كانت بعض ما كتب في الأزل من تاريخ هذه البائسة ؛ وقد حمله الله على الأمل، لتجمع أحدهما بالآخر، فما يزال يحسب أن لزوجته فيئة بعد شرة الصبك وأن تقادمه في الهرم وتقدمها إليه سيصلحان ما أفسد الدهر منهما جميعاً، وليس في الناس أحمق ممن يدفع نفسه إلى ما يظن، في حين تدفعه نفسه إلى ما يستيقن !

أما هي فرأت أن لا سبيل إلى انهزامها أو تراجعها بعد أن أنزلت أخلاقها إلى المعركة..، كأنها ماتت قبل أن تموت فليس يضرها أن تقع في هذه المعركة هالكة، وليس ينفعها أن تخرج منها حية، وكل شيء تستدرك منه الحيلة إلا ما أفاتت المرأة من شرفها النسائي، فإنه إن فرط منه فارط لم يستدرك..، فبسطت عنانها في يد الأقدار وانطلقت على أثرها صاغرة !

وقطع الفلك في دورته عشر سنوات حتى تفرى الليل عن صبح لم يشهده "الكونت"، فترك لامرأته ما جمع، وترك فيها ذلك الموت الحي..، وتركها في تلك الحياة شجرة مرداء غير أن اللذات لم تبق عليها بعده، فقد لا تقتل الآلام إذا أسرفت على النفس ولكن

اللذات لا بد قاتلة،وكأن الطبيعة فرضت على الإنسان أن لا يلذ بالعيش إلا حيث تكون لذته اختلاساً، فإنما ركب على أن يشده ما يؤلمه، ويبني منه ما يحسب أن يهدمه، فإن هو حمل نفسه على لذاتها، وأطلق لها ما بين هواه ورأيه، فقد أراد لنيته الضعيفة وضعاً ليس في هندسة الحياة، فلا تترك فيه اللذات إلا أمراضاً، ولا تحمل منه الأرض إلا أنقاضاً..، ولو لم تكن هذه اللذة المسرفة سبباً إلى الموت، لما ركب في غريزة الإنسان كره الموت من حب الاستمتاع بها ؛ والحياة في "عمليتها الجراحية" المؤلمة لا تحز إلا بأسلحة الآلام الحادة واللذات الحادة !

وبيع ذلك القصر وما ضمه، وكان فيما يحويه بعض رفوف من الكتب يباهي الأغنياء بتنسيقها ليظهر من ألوان جلودها رسم ليس في الحائط.. فاشتراها أديب تأدى إليه خبر الكونت وامرأته، فإنه ليقرأ منها ذات يوم في كتاب يصف البأساء والضراء من هموم الحياة، إذا ندرت ورقة كانت بين صحفة فالتقطها فإذا فيها تعتلجان بين هذين السطرين:

الفقر خلو من المال ؛ ولكن أقبح الفقر الخلو من العافية !

"فيكتور"

والغنى أن تملك من الدنيا، ولكن أحسن الغنى أن تمنأ في الدنيا..!

طه حسين

هو: طه حسين بن علي بن سلامة الدكتور في الأدب: من كبار المحاضرين جدد المناهج وأحدث ضجة في عالم الأدب العربي ولد في قرية "الكيلو" بمغاغة من محافظة المنيا وأصيب بالجدري في الثالثة من عمره، فكف بصره، وبدأ حياته في الأزهر ثم بالجامعة المصرية القديمة وهو أول من نال شهادة الدكتوراة منها ١٩١٤م بكتاب "ذكرى أبي العلاء" ثم سافر في بعثة إلى باريس فتخرج بالسوربون ١٩١٨م وعاد إلى مصر وعين محاضرًا بكلية الآداب بجامعة القاهرة ثم كان عميدًا لتلك الكلية فوزيرًا للمعارف ثم رئيسا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة من مؤلفاته: "الأدب الجاهلي"، و"الشعر الجاهلي"، و"حديث الأربعاء"، و"قادة الفكر"، و"على هامش السيرة"، و"مع أبي العلاء في سجنه"، و"مع المتنبي"، و"أحاديث"، و"الأيام"، و"فلسفة بن خلدون"، و"دروس التاريخ القديم"، و"مستقبل الثقافة في مصر"، و"عثمان"، و"علي وبنوه"، و"رحلة الربيع والصيف"، وقد ترجم كثير من كتبه إلى عدة لغات وعينته جامعة الدول العربية رئيسا بلجنتها الثقافية فأدارها مدة وحاول البدء في عمل "دائرة معارف" عربية ولم يوفق في ذلك وتوفي بالقاهرة.

- راجع ترجمته في:

المجمعيون (٧٩)، ومجلة القديم عدد الربيع ١٩٢٦، والأدب العربي والنصوص (٦٧٧/٦)، والأدب العربي المعاصر (٢٤٢/١)، وتراث الإسلام لعبدالرحمن زكي (٢٠)، وسهير القلماوي في قافلة الزيت: المحرم ١٣٨٠، والمكتب الصحفي في الرباط ١٩يونيو ١٩٥٨، وجريدة الحياة ١٩٧٣/١١/١، ومجلة العرب: ذو القعدة ١٣٩٣ ص٤٧٥.

مقتطفات من الأيام

يقول المستشرق الإنجليزى "جيب"إن "الأيام" من أحسن الأعمال الأدبيـــة في الأدب المصرى الحديث، حين كتب عنه سنة ١٩٢٩[١] .

وقد اخترنا من "الأيام" الجزء الأخير الذي يتحدث فيه المؤلف إلى ابنته، مختتماً حديثه عن الكفاح ضد التخلف والفقر والعجز، بذكر ما كان للحب الخلاق والزوجة الواعيـــة والاستقرار الأسرى من فضل ، فيقول:

"عرفته في الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلـــم في الأزهر، إن كان في ذلك الوقت لصبى جدٌ وعمل. كان نحيفاً شاحب اللون مهمل الـــزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى، تقتحمه العين اقتحاما في عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم، وفي هذا القميص الذي يبين أثناء عباءته، وقد اتخذ ألواناً مختلفة مـن كثرة ما سقط عليه من الطعام، وفي نعليه الباليتين المرقعتين. تقتحمه العين في هذا كلـــه، ولكنها تبتسم له حين تراه- على ما هو عليه من حال رثة وبصرٍ مكفوف- واضح الجبين مبتسم الثغر، مسرعاً في مشيته إلى الأزهر. لا تختلف خطاه ولا يتردد في مشيته، ولا يظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين. تقتحمه العين ولكن تبتسم لـه، وتلحظه في شيء من الرفق، حين تراه في حلقة الدرس، مصغياً كله إلى الشـــيخ يلتـــهم كلامه التهاماً، مبتسماً على ذلك لا متألماً ولا متبرماً، ولا مظهراً ميلا إلى لهـــو، بينمـــا الصبيان من حوله يلهون أو يشرئبون إلى اللهو.. عرفته يا ابنتى في هذا الطور، وكم أحب لو تعرفينه كما عرفته، إذن تقدرين ما بينك وبينه من فرق. ولكن أنى لك هذا وأنـــت في التاسعة من عمرك، ترين الحياة كلها نعيماً وصفواً. عرفته ينفق اليوم والأسبوع والشـــهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً، يأخذ منه حظه في الصباح، ويأخذ منه حظه في المساء، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً، ولا مفكراً في أن حاله خليقة بالشكوى. ولو أخذت يـــا ابنتى من هذا اللون حظاً قليلا في يوم واحد، لأشفقتْ أمك ولقدمت إليك قدحاً من المـاء

---

(١) انظر : رأى "جيب" في كتابه.

Studies on the civilization of I slam P, 79.

المعدني، ولانتظرت أن تدعو الطبيب. لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر ولا يعيش إلا على خبز الأزهر، وويل للأزهريين من خبز الأزهر، إن كانوا ليجدون فيه ضروباً من القش وألوانا من الحصى وفنوناً من الحشرات. وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا في العسل الأسود، وأنت لا تعرفين العسل الأسود، وخير لك ألا تعرفيه..

"وكذلك كان يعيش أبوك جاداً مبتسمًا للحياة وللدرس، محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان. حتى إذا انقضت السنة وعاد إلى أبويه يسألانه كيف يأكل؟ وكيف يعيش؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب، كما تعود أن ينظم لك القصص؛ فيحدثهما بحياة كلها رغد ونعيم، وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حب الكذب، إنما كان يرفق بهذين الشيخين، ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان، وكان يرفق بأخيه الأزهرى ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن. كذلك كانت حياة أبيك في الثالثة عشر من عمره. فإذا سألتني كيف انتهى إلى حيث هو الآن؟ وكيف استطاع أن يهيئ لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية، وكيف استطاع أن يثير في نفوس كثيرين من أناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة؛ إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال، فلست أستطيع أن أجيبك. وإنما هناك شخص آخر هو الذي يستطيع هذا الجواب. فسليه ينبئك. أتعرفينه؟ انظري إليه، هو هذا الملك القائم، الذي يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل في هدوء ونوم لذيذ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار في سرور وابتهاج. ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار.

"لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك، فبدله من البؤس نعيما، ومن اليأس أملا، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادة وصفوا. ليس دين أبيك لهذا الملك بأقل من دينك، فلتتعاونا يا ابنتى على أداء هذا الدين، وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان[1] .

---

(١) انظر : الأيام ص١٣٥-١٣٩.